طقوس
الإشارات والتحولات

ملاحظة

في الجزء الأول من مذكراته(*)، أورد المجاهد فخري البارودي حكاية صغيرة، روى فيها كيف استعرَ الخلاف بين مفتي الشام ونقيب الأشراف فيها أيام الوالي راشد ناشد باشا. وكيف تجاوز المفتي الخلاف الشخصي، ومدّ يد العون للنقيب حين أوقع به قائد الدرك آنذاك، وقبض عليه وهو يقصف مع خليلة له.

هذه الحكاية هي النواة التي بنيت عليها هذه المسرحية، واستقيت منها معظم شخصياتها، وإن افترقت عن البارودي في التأويل والمغزى.

* ولعل من الضروري أن أشير إلى أن المكان، وهو في دمشق، والزمان، وهو النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ليسا إلا مكاناً وزماناً اصطلاحيين في هذه المسرحية. فلم يكن همي أن أقدم عملاً عن البيئة أو أن أقارب الحقائق الاجتماعية والتاريخية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

* ويقال نفس الشيء عن مناصب الشخصيات. فهي ليست مقصودة بذاتها، وإنما باعتبارها مكوّنات ثقافية ونفسية للشخصيات.

إن أبطال هذا العمل هم ذوات فردية تعصف بها الأهواء والنوازع، وترهقها الخيارات. وسيكون سوء فهم كبير إذا لم تُقرأ هذه الشخصيات من خلال تفردها وكثافة عوالمها الداخلية، وليس كرموز تبسيطية لمؤسسات تمثلها. إن أبطال هذه المسرحية ليسوا رموزاً ولايمثلون مؤسسات وظيفية، بل هم أفراد لهم ذواتهم ومعاناتهم المتفردة والشخصية.

* ومن نافل القول التنويه بأن ما أتوخاه من هذا العمل، سواء نجحت أم أخفقت، هو إثارة أسئلة ومشكلات أعتقد أنها راهنة، ومتجددة أيضاً.

(*) مذكرات البارودي، فخري البارودي، بيروت ١٩٥١.

الجزء الأول

المكائد

المشهد الأول

(بستان في غوطة دمشق. شجرة مشمش مثقلة بالأزهار البيضاء. بسط مفروشة على الأرض، وفرش وثيرة ووسائد صغيرة ملونة. عبد الله حمزة نقيب الأشراف والغانية وردة، وهي خليلة عبد الله. مجلس لهو ومجون. بينهما طبق كبير عليه أصناف من المازة والمشروبات. وبعيداً عنهما قليلاً ينهمك الخادم حارم، والخادمة بسمة في الشواء، وتحضير الطعام. وردة تمسك عوداً وتلاعب أوتاره).

وردة : **(تغني بصوت ناعم يوشّيه المجون).**

وإن كان قصدك بالغرّة أنا مالي رايحة برّة
لنيمك على السرّة وعلّمك شغل الهوى
يا نور العين..
وإن كان قصدك بنهودي قم هات الدربكة والعودي
لنيمك على زنودي وعلمك شغل الهوى
يا عين.. يا عين..
وإن كان قصدك بجسمي قم هات لي بدلة على كسمي
لنيمك على جسمي وعلمك لعب الهوى
يا نور العين..

عبد الله : يا محمد.. مدد، مدد.

وردة : **(تجيه متصنّعة الدلال، وتواصل النقر على العود).** روح يا

مسكين.. خدودي تفاح الشام.

عبد الله : مدد، مدد.

وردة : روح يامسكين.. صدري عاج ورمان.

عبدالله : أحيِّ الظمآن، واعطني بوسة. **(يمد لها كأس العرق)** خذيها، واسقنيها من فمك.

وردة : ارفع هذا الحاجز أولاً.

عبد الله : أي حاجز يا حبة القلب!

وردة : حاجز الهيبة والوجاهة. **(وتغني بمجون)** صدرية عبد يا عبد.

عبد الله : تريدين أن أخلع الصدرية! حاضر.

(يخلع صدريته)

وردة : ومتيان عبد يا عبد.

عبد الله : وهذا المتيان.

وردة : ومحزم عبد يا عبد.

عبد الله : ونفك المحزم، لاحزمنا الله بغم أو هم.

وردة : قمباز عبد يا عبد.

عبد الله : وهذا هو القمباز. **(يرفع القمباز بحركة مخمورة، فيعلق في رأسه، يصرخ)** خلصيني من هذا الملعون..

وردة : الوجاهة خانقة يا عبودتي.. **(تضحك وردة، ويتضاحك الخادمان خفية)** والله إنه أليق وهو مقلوب. **(تقترب منه، وتدغدغه في خاصرته، فينط في مجلسه، وهو يضحك ضحكاً هيستيرياً)** ما هذا الخصر الوافر..! **(وتدغدغه)** ما هذا الإبط العاطر..!

عبد الله : **(كالمخنوق وسط الضحك والتشي)** لا.. لا.. تقتليني.. سأموت.. أرجوك، لا أحتمل الدغدغة.. يكفي.. يكفي.

(تساعده في خلع الرداء، وتسحبه من رأسه، فيتنفس بارتياح وعيناه تدمعان من الضحك).

عبد الله : يخرب شيطانك.. كدت أموت.. لا أحتمل الدغدغة.. والآن هاتي حقي.
(يضعها في حضنه، وينغمر في عناقها).

وردة : **(وهي تنفلت منه بدلال)** أخذت حقك وزيادة.

عبد الله : لا تبخلي على الظمآن.

وردة : لكل شيء أوان.

عبد الله : طيب.. جاء دوري. **(يصفق متمايلاً ويغني)** وسروال ورد يا ورد.

وردة : لا يطلع القمر في النهار.

عبد الله : **(وهو يجرع كأسه)** اليوم ستطلع النجوم والقمر في عزِّ النهار.

وردة : اسقني إذن. **(يملأ قدحها بالعرق ويرايشه بالماء، ثم يرفعه إلى شفتيها، فترشف منه رشفة نهمة)** أين الدربكة؟

عبد الله : **(صائحاً للخادم)** سخّن الدربكة، وهاتها.
(وردة، تتناول محزم عبد الله من الثياب المبعثرة).

عبد الله : انتظري.. سأعقده لك بنفسي. **(ينهض مترنحاً، ويحاول أن يربط المحزم. يطبطب على كفلها)** يا نمارق الجنة.. ما عاش من لم يتوسد مثلها.

وردة : أين العمامة الخضراء؟

عبد الله : إنها علامتي يا وردة..

وردة : سأضع علامتك على رأسي، وأزيّن بها رقصي.

عبد الله : ضعيها أنّى شئت. سأقول لك أمراً جاداً يا وردة. عبد الله لايقبل أن يشاطره أحد الماء الذي يحييه. لو علمت أن رجلاً آخر يمسّ هذه الكنوز..

وردة : وماذا يفعل رجلي الغيور إذا مسَّ رجل آخر هذه الكنوز؟.

عبد الله : ماذا أفعل! ستبرق الدنيا، وترعد. أجل.. ضعيها حلقاً في أذنك. ستبرق الدنيا، وترعد.

وردة : ما ألذّك! أتمنى أن أراك تبرق، وترعد. يا حبوبي الغشيم، المرأة التي تعرف عبد الله، لا يبقى لها غرض بالرجال.

عبد الله : الله أكبر.. تعالي.. **(ينحني، ويستند بيديه على الأرض، يقف على أربعة)** تعالي.. اركبي فوق ظهري.. افعلي بي ما تشائين. **(تركب وردة على ظهره وهي تضحك)** يا الله.. ما أخفّك. حرير دافئ يسترخي على ظهري. إلكزيني كي أشعر أنك جسد لا غيمة.

(يأتي الخادم حاملاً الدربكة، وهو يجهد في إخفاء ضحكه).

الخادم : الدربكة جاهزة يا سيدي.

عبد الله : هل سخّنتها جيداً؟

الخادم : نعم..

عبد الله : أسرع بالشواء.

(يجلس عبد الله، يحتسي كأسه بجرعة واحدة، يضع الدربكة في حضنه، يجرّبها بنقرات خفيفة، ثم يضبط الإيقاع حتى يغدو راقصاً. تبدأ وردة بالرقص، وبين الحين والحين تقترب منه وتحني رأسها إلى الخلف باتجاهه، وكلما سقطت العمامة، أعادها إلى رأسها. ثم يستخفّه الطرب، فينهض وهو مستمر بالنقر على الدربكة، ويتلوى أمامها. تطوّق إليتيه بمنديلها، وتبدأ بتوجيه حركاته في جو مفعم بالضحك والنشوة والسكر. فجأة يقتحم المكان عزت بيك، قائد الدرك ومعه عدد من رجال الدرك. يصاب عبد الله ووردة بالذهول، يجمدان، وتدور عيونهما).

عزت : يا سلام.. يا سلام. أنس وطرب وغرام.

عبد الله : ما هذا! إني في بستاني. كيف تدخلون دون إذن أو دستور!

عزت : الحكومة لا تحتاج إلى إذن أو دستور.

عبد الله : وأنا.. ألا تعرف من أنا..!

(تحاول وردة أن تلملم نفسها، فترفع العمامة عن رأسها).

عزت : لا يا خانم.. دعيها على رأسك. يبدو أن السيد عبد الله أهداك نقابة الأشراف، وعليك أن تقبلي الهدية.

عبد الله : ماذا حدث! هل تغير الوالي! هل تغير السلطان!

عزت : ورأس أمي لم يتغير السلطان الأعظم، ولم يتغير الوالي.

عبد الله : إذن.. كيف تجرؤ! ألا تعرف من أنا! إني نقيب الأشراف.

عزت : لا أرى أمامي إلا نقيب الكيف والزّنى. **(للدرك)** انظروا.. أتتعرفون على نقيب الأشراف في هذه القيافة! تعالي يا خانم.. سنتابع نزوات السيد عبد الله ومجونه. ارتدي الثياب، وأكملي هيئتك.

وردة : **(محرجة)** يا بيك.. استر، سترك الله.

عبد الله : إنك تتجاوز كل الحدود يا عزت بيك.

عزت : وأنت.. ألم تتجاوز الحدود! تعالي، ونفّذي الأمر.

وردة : أرجوك..

عزت : قلت تعالي.. وما همك أنتِ! ستتفرج عليكِ الشام، وأنت تتبخترين بثياب النقيب.

(يجرّها، ويجبرها على ارتداء ملابس النقيب).

عبد الله : هل جننت! هل تعرف عاقبة ما تفعل! إنك تهين كل الأشراف. إنك تشعل فتنة في المدينة.

عزت : ماذا تعلّك! هل تهدد الحكومة! سنرى إن كان الأشراف يحامون السكر والفسق والفجور. يا خانم.. أنت جميلة بهذا الزي. إنه يليق بك أكثر منه.

عبد الله : أعرف أن هذا تدبير المفتي. إنك تورّط نفسك يا عزت بيك في أمر لا يعنيك. هذه غلطة فاحشة، ستدفع ثمنها غالياً، أنت وذلك الثعبان الأرقط.

عزت : عندما يتبخّر العرق من رأسك، ستعرف من الذي ارتكب

الفواحش والأخطاء. **(إلى الدركي)** ضع القيد في يده.

عبد الله : أتقيدني أيضاً؟!

عزت : وستدخل دمشق في عراضة مهيبة. **(للدرك)** هاتوا بغلة السيد.

عبد الله : **(ينهار)** لا.. أرجوك يا عزت بيك. لا يمكن أن تفعل ذلك بي. **(بصوت هامس)** اسمع.. سلّفني هذا المعروف، ولن أبخل عليك.

عزت : منذ قليل كنت تهددني، والآن ترشوني!

وردة : **(تنحني على الأرض)** أبوس رجلك، استرنا.

عبد الله : أرجوك.. جنّبنا هذه الفضيحة. وأنا أصدقك النصيحة.. لاتضع يدك بيد ذلك الثعبان، ولا تأمن له. سيلدغك في أول فرصة. وإن زيّن لك التدخل في عداوتنا بالمال، فإن الجميع يعرفون أن يدي مبسوطة، وأني سأعطيك أضعافاً.

عزت : لا أعرف عما تتكلم! ولاتهمّني عداوتك مع المفتي في شيء. واجبي أن ألاحق ما يخالف الشرع والقانون، وأنا الآن أقوم بواجبي لا أكثر.

وردة : **(وهي تنهنه بالبكاء)** عبد الله له مركز ومقام. خذوني، واتركوه. أنا بنت الخطا، فخذوني ومالكم عليه شيء.

عزت : الخانم عاشقة. إنك محظوظ مع الغواني يا عبد الله. **(يحضر الخادم البغلة)** يا الله.. أركبوه، وأردفوا خليلته وراءه.

عبد الله : أتأخذني بهذه الثياب!

عزت : آخذك كما وجدتك.

عبد الله : **(متوسلاً)** أعطيك ماتشاء، وأشفق علينا.

عزت : يا الله.. فليتحرك الموكب.

عبد الله : **(يغضب ويزبد فيما يتحرك الموكب)** سترى.. إنك تضع يدك في نار ستحرقك.. هذا الخطأ سيدمرك أكثر مني.. سنرى

كيف تواجه غضب الأشراف وأعواني. إنك تشعل حريقاً..
إنك تشعل ثورة..
(يبتعد الموكب. قائد الدرك ورجاله يركبون خيولاً، ووسطهم عبد الله على ظهر البغلة مقيداً، ووراءه وردة بثياب نقيب الأشراف).

الخادم : **(دامع العينين)** يا حيف.. دالت دولة النقيب.

الخادمة : هل تعني أننا لن نتزوج!

الخادم : اتركي تصاريف الأيام، تقرر أمرنا.

الخادمة : يعني أنك تتراجع!

الخادم : لا أتراجع، ولكن بعدما جرى..

الخادمة : وما همّنا بما جرى!

الخادم : حقاً.. وما همّنا. على الأقل، سنأكل اليوم حتى التخمة، ثم.. انظري.. مازال الفراش ممدوداً **(يحضنها، ويختلس قبلة).**

الخادمة : **(تنفلت راكضة)** لا.. ابعد عني.

الخادم : **(يجري وراءها، وهو يدندن).**

إن كان قصدك بنهودي   قم هات الدربكة والعودي
(تتلاشى الإضاءة)

المشهد الثاني

(إيوان الضيوف في بيت المفتي محمد قاسم المرادي. المفتي محمد قاسم المرادي ولديه ضيفان من الأعيان حميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة).

إبراهيم : هذه العداوة بينك وبين النقيب قسمت البلد، وأتعبت الناس.

حميد : والله يا شيخ.. أثّرت على تجارتنا، ومصالحنا. فالذين يقفون مع النقيب، لا يشترون إبرة من التجار المحسوبين عليك. والحمد لله، مؤيدوك هم الأكثر ولكن الحزازات بلغت حد الضغائن.

المفتي : وهل يسعدني هذا الوضع! ما تتحدثان عنه يسبّب لي الكمد والحسرة. كنا دائماً كالأسرة الواحدة، متحابين، متضامنين، لايدخل بيننا غريب. حتى اختاروا هذا النقيب، الذي لايملك من المؤهلات إلا أدناها. لم نقل شيئاً. اختاروه نقيباً، ليكن. قلنا خير وبركة. ولكن هو الذي بادر بالعداوة، وتطاول على مقامي.

إبراهيم : إنما نتحدث إليك، لأنك الماعون الكبير. والماعون الكبير يجب أن يسع الصغير.

المفتي : بذلت جهدي، وما أزال. تغاضيت عن الكثير من مضايقاته. وسكتُّ عن خفّته، وتجاوزاته. لم يدع سبيلاً للوفاق إلا وسدّه. ولو شئت أن أتحدث عما بذلت من جهد، لما كفاني

النهار بطوله. ومع هذا قولا لي، ماذا أفعل؟ إن كان لدى أي واحد من الأشراف والأعيان حلٌّ لهذا الخلاف، فإني سأتعاون، وأستجيب.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ. هذا ظننا فيك، ومثلك لايخيّب الظن.

المفتي : أستغفر الله.. إن مصلحة البلد أغلى علي من نفسي.

(يدخل زلمة المفتي. عبدو الدكّاك ووراءه يتدافع رجلان من العامة، هما العفصة وعباس السروجي. يحاول عبدو الكلام لكنهما يسبقانه).

العفصة : البشارة لك يا مفتينا، والحلاوة لنا.

عباس : رأت دمشق اليوم ما لايخطر على البال ولو في الخيال.

العفصة : رأينا عدوك مقيداً وعارياً إلا من الملابس التحتية. وقحبته تضع على رأسها عمامة النقيب، وترتدي ثيابه.

المفتي : ماذا تخرّفان؟

العفصة : نقول لك ما رأينا. أركبهما عزت بيك على بغلة، وساقهما في الحواري والأزقة، والناس تتفرج.

عباس : عجبت الناس وحوقلت، وانهال على عدوّك الصفير والبصاق واللعنات.

العفصة : وهما الآن في السجن يتابعان الوصال، والذي منه..

المفتي : **(غاضباً)** اخرس.. قطع الله لسانك ولسانه.

العفصة : أهذه بشارتنا! ألا يسعدك أن يقع عدوُّك هذه الوقعة! قامت دمشق، ولم تقعد. وما سمعته منا سيخبرك به الكثيرون. ولكننا أسرعنا كي نفرح قلبك، ونحصل على الحلاوة.

المفتي : **(ينظر إلى عبدو بغضب)** كيف سمحت لهما؟ كيف دخلا؟

عبدو : جاءا راكضين، وقالا إنهما يحملان لك خبراً عاجلاً وساراً.

المفتي : أهذا خبر سار! أيسرُّكم أن تهين مرتزقة الدرك أشرافكم! أن

يُمرّغَ الأسياد والأكابر في الوحل! وكيف يتجرأ الواحد منكم على تناول نقيب الأشراف بهذه اللغة البذيئة، والخالية من كل توقير!

عباس : يا سيدي.. هذا ما رأيناه.

العفصة : وكنا نظن أنك ستفرح حين تعرف الوكسة التي حلّت بعدوّك.

المفتي : ليس نقيب الأشراف بالعدو. ربما كانت هناك خلافات في الاجتهاد والرأي، ولكن هذه الخلافات ليست عداوة. إن عدونا الآن، عدوّي وعدوّ الأشراف وعدوّكم أيضاً، هم هؤلاء الذين يحاولون الحطّ من كباركم، وإهانة أشرافكم. إنهم يريدون أن ينكسوا رؤوسنا جميعاً، وأن يجعلوا الصغار يتطاولون على الكبار، والأوغاد على الأشراف. فهل يرضيكم ذلك؟

العفصة : ما ذنبنا إذا كان النقيب هو الذي أرخص نفسه!

المفتي : اخرس.. ولا أريد أن يلغو أحد بهذه القصة. اذهبا، وأخبرا عن لساني. لا أريد لغطاً في المدينة. وكل من يلغو بسيرة النقيب، سيكون حسابه معي.

العفصة : إذن، لاحلاوة يا شيخنا!

المفتي : **(إلى عبدو)** أخرجهما فوراً. والويل لمن يخوض في هذه القصة.

(يدفع عبدو الرجلين بفظاظة، ويخرجان).

حميد : **(مندفعاً)** دعني أتبرّك فيك. **(يتناول يده، ويقبلها).**

المفتي : أستغفر الله.. أستغفر الله.

حميد : في مثل هذه المواقف، تعرف معادن الرجال. ما بدر منك أمامنا، زادك علواً وسمواً.

المفتي : كل امرىء يعمل بأصله، ولا أدري الآن، بعدما سمعنا ما

حدث، إن كنتما تجدان في جفائي للنقيب تجنياً أو تنافساً. هل يحقُّ لنقيب الأشراف أن يتصرف بمقامه ومنصبه بمثل هذا الطيش الأرعن!

إبراهيم : لا والله.. إذا صحَّ ما سمعناه، فإن هذا السلوك يشين الزَعَرَ، والعوام من الناس.

المفتي : وما يفعله واحد في مقامه، لا يسيء إلى نفسه فقط، بل يسيء إلى المقام ذاته وإلى كل المقامات. إنه يسيء إلينا جميعاً. ولا أعرف كيف يمكن أن يوقّر الناس بعد اليوم نقابة الأشراف، أو سواها من المناصب. إنه يضيّع هيبتنا، ويجعلنا مضغة في أفواه الرعاع والسوَقة.

حميد : وماذا تقترح يا مفتينا؟

المفتي : وماذا أقترح..! هو يخرأ، وعلينا نحن أن نمسح خراءه. لاينبغي أن تفوح هذه الرائحة بين العامة في المدينة. اذهبا الآن، واطلبا من الأشراف أن يوافوني في بيتي هذا المساء. عليهم أن يوحّدوا كلمتهم معي، وأن يساعدوني كي نجد تدبيراً، ينقذ شرفهم، بل وشرفنا جميعاً.

حميد : بارك الله فيك يا شيخ.. سنتقصى الأمر، ونذهب إليهم حالاً.

إبراهيم : لن ينسوا لك هذه البادرة أبداً.

المفتي : المهم أن تصفو القلوب، وأن يهدينا الله إلى تدبير مفيد.

(يحيّي حميد وإبراهيم الشيخ، ويخرجان).

المفتي : هذا فصل الختام يا عبد الله. وأعدك أن يكون فصلاً داوياً ومثيراً.

(يدخل عبدو).

عبدو : لقد قسوت على عباس والعفصة يا سيدي.

المفتي : ماذا كان بوسعي أن أفعل! أن أقسو عليهما خير من أن يقال،

أبدى المفتي ارتياحاً وشماتة.

عبده : على كلٍّ، حاولت أن أطيّب خاطرهما.

المفتي : حسناً فعلت. ولكن نبّه عليهما وعلى جميع الرجال من أنصارنا ألا يتجاوزوا الحدود، وألا ينسوا أن للمراكز حرمتها. إياهم أن يظنوا أن الفرصة سانحة، كي يتخطوا المراتب، ويلطخوا ببذاءاتهم الأشراف والأكابر.

عبدو : والله.. هذا ما قلته لعباس والعفصة، وبعدهما جاء كثيرون، يريدون أن يزفّوا لك البشرى، فنهرتهم، ولم أسمح لهم بالدخول.

(يسمع طرق على الباب).

المفتي : انظر من في الباب.

(يخرج عبدو مسرعاً، ثم يعود وهو يرحب بعزت بيك).

عزت : السلام عليكم يا شيخ.

المفتي : أهلاً وسهلاً. شرفت يا عزت بيك.

عزت : أخيراً.. أوقعته لك كالطريدة المبغوتة.

المفتي : هل أوقعته لي يا عزت بيك!

عزت : لي ولك إذا شئت.

المفتي : لا.. لا تدرجني في هذه القصة. وصيدك اليوم سيثير من المتاعب أكثر مما يحلّ.

عزت : ماذا..! هل تنفض يدك..!

المفتي : وما دخل يدي، حتى أنفضها!

عزت : من أبلغنا عن السيران إذن!.

المفتي : وما أدراني!

عزت : إنه واحد من رجالك.

المفتي : من رجالي!.. أعتقد أنك مخطئ يا عزت بيك.

عزت : ومن يكون العفصة إذن..!

المفتي : العفصة.! إنك تظلم رجالي إن اعتبرته واحداً منهم. منذ قليل، جاء يبشّرني بفضيحة النقيب، فطردته من بيتي. إن العفصة ضبع مقابر يعتاش من الوشايات والفتن والنمائم، ولايمكن أن أضم واحداً مثله إلى رجالي وأعواني.

عزت : دعني أفهم يا مفتينا. هل تريد أن تتنصّل من الأمر! هل انتهت العداوة بينك وبين النقيب!

المفتي : كنت أحسبك أكثر حصافة يا عزت بيك. أتعرف ماذا فعلت..! لقد رميت الطفل مع ماء الغسيل.

عزت : ورأس أمي.. لا أعرف ماذا تعني!

المفتي : أعني أنك غاليت، وتجاوزت في الصيد حدود المعقول. كان يكفي أن يشعر بالخزي أمامك. أما أن تخزيه أمام عامّة الناس، وتحقّر نقابة الأشراف، فهذا غلوٌّ واستهتار.

عزت : يا للعجب.! بدلاً من الشكر، أراك تنقلب علي. ما الذي تغيّر حتى تدافع عنه!

المفتي : لم أنقلب عليك، ولاتظن أني أدافع عنه. المسألة هي أن النظام في هذه المدينة يرتكز على مراتب وتوازنات. وما يضبط كل شيء هو عدد من المناصب التي ينبغي أن تحفظ حرمتها، وتُصان هيبتها. كما أن هيبة الدولة واحدة ومتضافرة، فكذلك الحال في مدينة الشام. اسمع.. لو أهان أحد منصب الوالي، ألا تصيب الإهانة الصدر الأعظم والباب العالي وكل الدولة!.

عزت : لا أفهم شيئاً مما تقول، ولا أعرف كيف يمكن أن تصيبك إهانة، لحقت بعدوّك اللدود.

المفتي : نعم.. إن الرجل عدوّي، ولكن نقابة الأشراف مرتبة تسند مرتبتي، وهيبتها تعزّز هيبتي. حين وضعت العمامة الخضراء على رأس قحبة، أهنت الأشراف، وأهنت عمامتي أيضاً.

ومن يعامل نقيب الأشراف بهذا الاستخفاف، قد يعامل المفتي لدى أول خلاف بالاستخفاف ذاته.

عزت : ألقمني أورادك بالملعقة يا حضرة المفتي. ماذا تريد أن تقول؟

المفتي : أردت أن أشرح لك أن الموقف معقّد. سامحك الله.. لو شاورتني في الأمر!

عزت : ظننت أنك تعلم، وأن الأمر لايحتاج إلى تشاور. ما الذي لايعجبك؟

المفتي : إن إفراطك في الإهانة نغّص علينا الفرحة. ماذا نفعل إذا غضب الأشراف، وأثاروا هياج العامة.

عزت : ولماذا يغضب الأشراف! هل رميته بتهمة باطلة! ألم أقبض عليه متلبساً بالفسق والسكر والعربدة!

المفتي : الفسق والسكر والعربدة، وأنت سيد العارفين، ليست أموراً نادرة في مدينتنا. والسلطات تعودت أن تغضّ الطرف، إلا في حالات الأذى العام، أو حين يكون في رأسها موّال.

عزت : وضّح لي، وأفدني. هل نحن حليفان أم لا؟

المفتي : نحن حليفان.. بالتأكيد نحن حليفان.

عزت : علامَ إذن هذا اللوم، والتقريع! كنت أتوقع أن تحتفي بي، وأن نحتفل معاً.

المفتي : تعبيري عن الحفاوة سيسبقك إلى البيت. والاحتفال سيكون له وقته، ولكن أرجو أن تفهمني.. إذا تعقّد الموقف، قد أجبر على التظاهر والمسايرة.

عزت : أتقف معهم ضدي!

المفتي : وهل يعقل أن أقف ضدك! لا.. لن ينالك مني إلا كل خير. وإذا اضطررت لاتخاذ بعض الخطوات، فلا تقلق. أنا أدرى بأهل الشام منك، فدعني أصرّف الأمور إذا تعقدت.

عزت : أنا الحكومة يا حضرة المفتي، والقرار في النهاية لي.

المفتي : أعرف.. أعرف.. ولكن هل تحتاج الحكومة الآن إلى شغب، ووجع رأس؟ قلت لك، اطمئن.. ودعني أصرّف الأمور.

عزت : ليكن.. ولكن أرجو أن تراعي ما بيننا. ولا أعتقد أنه سيكون مفيداً، أن يدبَّ بيننا الخلاف.

المفتي : معاذ الله أن يكون بيننا خلاف.

المفتي : هذا أملي.. سأعود الآن إلى المخفر، وأتابع ما يجري.

المفتي : الهدية تسبقك إلى البيت، والاحتفال سيأتي وقته.

عزت : وفّر على نفسك يا شيخ. ما جئت كي أتقاضى الثمن.

المفتي : يا عيب الشوم.. بين الأصدقاء لايحكى عن الثمن.

عزت : **(وهو يخرج)** سنرى..

المفتي : لم أبدد شكوكه، ولكن ماذا أفعل..! يا عبدو.. يا عبدو.. **(يدخل عبدو مهرولاً)**.

عبدو : حاضر.

المفتي : اسمع يا عبدو.. سأكلفك بمهمة دقيقة. هل استرضيت العفصة وعباس كما يجب؟

عبدو : نعم.. حاولت وسعي.

المفتي : طيب.. تذهب الآن إلى مدير السجن، وتقول له، حين يهبط الليل، وتعتّم العين، سنبدِّل المرأة المسجونة مع نقيب الأشراف. وقل له، إذا عارض أو تردد، اعتبر نفسك بين الأموات.

عبدو : لن يجرؤ على الإعتراض.

المفتي : لو مانع، سيهدر دمه، ويضيع. وأوصيك بالكتمان. يجب أن يظل السر مصوناً بيننا.

عبدو : لا توصِ حريصاً.

المفتي : اذهب إذن، وعد سريعاً بالجواب. **(يخرج عبدو، وتتلاشى الإضاءة)**.

المشهد الثالث

(في مرجة منزوية على ضفة بردى. مفرش على العشب. العفصة وعباس يشربان، وبينهما بعض الأطعمة).

العفصة : هذا المفتي غميق.. يا لطيف.. إنه غميق جداً.

(يتاول عباس كأسه، ويحتسي جرعة كبيرة مشيحاً بوجهه، يبدو عليه الحرَد والانزعاج).

العفصة : أي أخي أبا الفهد.. لاتكن غضوباً.

عباس : إني غاضب. لا أستطيع أن أنسى الطاسة الباردة التي سكبها على رأسي.

العفصة : سكب علينا ماءً بارداً من جهة، وغمز عبدو من جهة ثانية. لولا أن المفتي أَمَرَه، لما تجرأ عبدو على ملاطفتنا، وتطييب خواطرنا. كم توسل إلينا، كي نزرعها بذقنه! وكم أكد لنا، أن المفتي محكوم بظرفه! كانت محضورة يا أبا الفهد، وكان مجبوراً على التظاهر بالغضب. إن مفتينا غميق جداً. ومظهره لايكشف مخبره. إن المخبر ما قاله عبدو، لا ماقاله المفتي.

عباس : اسمع.. سئمت هذه السيرة. أنا رجل صريح، ولا أعرف التعامل مع المخبر والمظهر.

العفصة : وما العمل! نحن رجاله، وعلينا أن نسلّم أمورنا له.

عباس : أنا.. لا أسلّم أمري إلا لهذا الدبوس، وهذا الخنجر.

العفصة : ما لنا يا أبا الفهد.. بدأنا نغلط. أأنت الوحيد الذي يحمل دبوساً وخنجراً؟

عباس : لم أقل ذلك.

العفصة : الرجال، لايغيّرون ولاءهم كل يوم. ونحن، شئنا أم أبينا، محسوبون على المفتي.

عباس : إن الإهانة تقف في زوري.

العفصة : طيب.. كاسك. **(يرفع كأسه، ويدقها بكأس عباس)** سأقول لك مثل عبدو؛ لفّها وازرعها بذقني.

عباس : لا أدري.. أحياناً أتساءل، ما لنا وهذا كله!

العفصة : إنك صافٍ يا أبا الفهد، وبسيط أيضاً. أليس عيشنا من هذا كله! إن القبضاي مثلنا، يلزم أن يكون له مع الشجاعة ظهر ووجاهة. والذي يوفّر الظهر والوجاهة، هو رجلٍ كبير مثل المفتي، تنصره وتقضي حاجاته، فيقاسمك شيئاً من نفوذه وماله. **(يرفع كأسه)** اشرب أخي أبا الفهد.. اشرب.

عباس : **(وهو يرفع كأسه)** أخي.. هذا طبعي. أحب أن يكون كل شيء مستقيماً. إن نفسي تعاف اللف والدوران، أو التلبسة.

العفصة : لاتؤاخذني يا أبا الفهد. أنت أكبر مني، ولكن يبدو أن الحياة عركتني أكثر منك. شغل الكبار، كله لفٌّ ودوران. والمفتي يفتل البلد على أصابعه، بالسياسة والتلبسة. وهذا فن، مثل فن الكراكوزاتي، لايحسنه إلا أهل الكار، والأبرع هو الذي يكسب. كيف سقط النقيب هذه السقطة! لم يسقط إلا بالتدبير، والتلبسة.

عباس : فضَّ هذه السيرة، ودعنا نشرب. أريد أن أعبئ مخي.

العفصة : **(وهو يصبُّ في الكأسين)** هذا هو الكلام.

عباس : **(وهو يرفع كأسه)** نخب الطرخون!

العفصة : **(ضاحكاً)** ولماذا الطرخون!

عباس : خائن يا طرخون. ترزعه في مكان، وينبت في مكان آخر. قلت نخب الطرخون، وستشرب نخب الطرخون.

العفصة : **(يرفع كأسه)** نخب الطرخون يا أبا الفهد.

عباس : نخب الطرخون.

(يكرعان كأسيهما).

العفصة : يخطر ببالي أن اليوم مناسب، كي نذلّ أبا رياح.

عباس : هل تريد أن تذلّه؟

العفصة : نعم.. واليوم، ستكون شوكته مكسورة، بعد تجريس النقيب وسجنه.

عباس : منازلة الجريح خطيرة.

العفصة : ونحن لها.

(يظهر سمسم وهو يجتاز البستان وراءهم. وسمسم شاب مخنّث، يمشي مشية خليعة).

عباس : انظر من يأتي.

العفصة : **(يراه، فتتغير ملامحه بحدة)** لا تدعه يقترب من مجلسنا.

عباس : دعنا نتسلّى قليلاً. ما وراك يا سوس؟ هل ضيّعت الحبيب!

سمسم : **(ملتفتاً، بعد تردد قصير)** كيف أضيّع الحبيب، وهو يكلمني.

عباس : ومن الحبيب! تعال.. اقترب.

العفصة : لا.. لايصح. هذا نجاسة. إنك تدنّس مجلسنا يا أبا الفهد.

عباس : ما بالك! من يسمعك يظن أن مجلسنا في صحن الكعبة. أحب أن أناغشه قليلاً.

سمسم : **(متردداً)** هل دعوتني فعلاً!

عباس : تعال.. هل أنت خائف!

سمسم : **(وهو يقترب)** خائف..! فرطت أحشائي من الفرح.

(يتخذ العفصة هيئة حَرِدة، ويميل في جلسته عنهما).

عباس : خذ.. اشرب حليب السباع.

سمسم : أنا قتيل هذه الشوارب. بغيتي حليبك دون كل السباع.

عباس : يبدو أنها هائجة عليك.

سمسم : آخ يا أبا الفهد.. ولايشفيها إلا ضربة من خنجرك. أتذكر تلك المرّة اليتيمة! والله.. كأنك سللت روحي من بدني.

عباس : لا يا سوس.. الأصول، أن تراعي الحاضرين، وتوزع المحبة عليهم بالعدل.

سمسم : اتركها مستورة يا أبا الفهد.

العفصة : **(غاضباً)** امشِ من هنا. لا أريدك في حضرتي.

سمسم : أنا في حماك يا أبا الفهد.

العفصة : **(يسحب خنجره)** قلت امشِ وإلا جعلت جسمك غربالاً.

سمسم : **(يتراجع خلف أبي الفهد مذعوراً)** ولماذا تتبلّاني! هل تكلمت أو كشفت سراً!

العفصة : **(وهو يهب منتفضاً)** إي.. سأكشف أمعاءك، يا قحبة المقابر.

عباس : **(ينهض بدوره ملوّحاً بالدبوس)** ما القصة! ماذا أصابك يا عفصة!

العفصة : سأبعج بطنه.

عباس : **(محتداً)** لن تبعج شيئاً. هو في حمايتي. العمى.. طيّرت الكأسين من رأسي. ما الحكاية؟

العفصة : لا أطيق وجوده.

سمسم : **(بكيد نسائي)** هو لا يطيق وجودي، لأني أعرف بعض الأشياء..

عباس : وأنت يا ابن اللوطية.. ما معنى هذا الغمز واللمز!

سمسم : هل تحميني؟

(يقفز العفصة، ويحاول أن يطعنه، فيتصدى له عباس، ويلوي ذراعه).

العفصة : لا يا أبا الفهد.. أتبيعني من أجل هذا العِلق!

عباس : إي.. زدتها.. اهدأ، واجلس. وأنت أيها العرصة.. ماذا تريد

أن تقول؟

سمسم : أنا دخيل شهامتك.

عباس : تكلم.

سمسم : خبرناه، فلم نجد لديه إلا مثلٍ الرز، أو فتلة القماش. وعرفنا أن ما فينا فيه، وما يحكنا يحكه.

عباس : **(وهو يكتم الضحك)** الآن.. امشِ، ولا تلتفت وراءك. وإن كررت ما قلت، هلكت.

سمسم : **(محاولاً أن يختلس قبلة من أبي الفهد)** دعني أتزود بقبلة من حبيبي.

عباس : **(وهو يدفعه بصرامة)** إمشِ.

(يخرج سمسم، يجلس عباس، العفصة يطأطئ رأسه، وينظر في الأرض، يرين صمت ثقيل).

عباس : **(وهو يحتسي كأسه بهدوء)** اشرب يا عفصة.. اشرب.

العفصة : **(بلهجة ذليلة وعاتبة)** لو تركتني أسفح دمه!

عباس : وما الفائدة! تلوث يدك، ولا تغيّر من الأمر شيئاً.

العفصة : **(منكسراً)** هل سقطت من عينك؟.

عباس : وحياة الفهد وأبيه كانت لدي ظنون. لا.. أنت الآن حبوبتي، وسأضعك في عيني. اشرب..

العفصة : **(يحتسي جرعة وافرة)** هذه الملافظ تجرحني..

عباس : انكشفت علي مثل حلالي. ولا داعي للتظاهر بالحياء.

العفصة : **(وهو يمسك يد عباس، ويقبلها)** أبوس يدك.. استر.

عباس : **(وهو يضع يده على رقبته)** باطل.. وهل يفضح المرء حلاله!

العفصة : **(وهو يمرغ وجهه بيد عباس)** هل تعدني أن يظل كل شيء، كما هو في الظاهر؟

عباس : **(وهو يداعبه)** إذن سيكون لنا، مَخبر ومَظهر!

العفصة : ككل الناس يا عباس.. ككل الناس.

عباس : إذا كنت طيّعاً ومرضياً، فسأكون خيمة تغطيك، وتحميك.

العفصة : سأكون كما تشاء. آخ.. كم تعذبت وشقيت، كي أخفي هذا الأمر! كان كالدمّل يسممني في داخلي.

عباس : الآن.. انفقأ الدمل.. ويمكنك أن تستريح.

العفصة : نعم.. سأستريح. **(يدفن رأسه في حضن عباس)** انصب خيمتك فوقي.. وسأستريح.

عباس : **(وهو ينحني عليه)** ها هي خيمتي.! ستكون كما أنت.. ولن تشقى بعد اليوم.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(إيوان الاستقبال في بيت نقيب الأشراف. يجلس المفتي وحيداً في الإيوان، ويتشاغل بتفحص المكان. بعد قليل، تدخل مؤمنة، زوجة نقيب الأشراف. امرأة، فارعة القوام، تلتمع في وجهها عينان وهاجتان. ثيابها محتشمة).

مؤمنة : أهلاً وسهلاً يا شيخ.

المفتي : **(وهو يتفرس في وجهها)** كانت الحشمة تقتضي أن أرسل الحريم، ولكن المسألة حساسة، ولا أستطيع أن أعهد بها إلى خفة الحريم.

مؤمنة : كثّر الله خيرك. هل جئت كي تصفني بالخفّة!

المفتي : **(مرتبكاً)** لا.. عنيت حريمي.

مؤمنة : ألا يسموننا جميعاً، الحريم! ولكن لايهم. لم تشرّفنا بالزيارة، كي نتبادل الحديث عن الحريم.

المفتي : هذا حق. أنت تعلمين..

مؤمنة : نعم أعلم.. ولا ألومك، ولو شعرت بالشماتة.

المفتي : لم أتحامل على نفسي، وأطلب هذه الزيارة كي أتشفى أو أشمت.

مؤمنة : هذا كرم منك. هل يحق لي أن أسألك عن غرض الزيارة إذن؟

المفتي : جئت كي أنقذ رجلك من ورطته.

مؤمنة : أنت..! تنقذه..!

المفتي : نعم.. أنا.

مؤمنة : وماذا يدفعك؟ ألم تكن تتمنى دائماً إزاحته، والتخلص منه؟

المفتي : واليوم.. أريد أن أنقذه. سمِّها ما تشائين. إن مروءتي تملي علي أن أمدَّ له يدي. هل ماتت النخوة! أينبغي أن نرمي كل بادرة طيبة بالظنون والريب! جئت ماداً يدي، فلا تجحديني.

مؤمنة : لا أريد أن أجحدك يا شيخ. ويجب ألا تستغرب إذا فاجأتني غيرتك، وساروتني بعض الشكوك. فنحن نعرف ما جرى، وما يجري بينك وبين نقيب الأشراف.

المفتي : دعينا ننسى ما جرى. ولنتعاون على حلِّ هذه الورطة.

مؤمنة : ماذا تقترح؟

المفتي : هل أخبروك القصة، وتفاصيلها؟

مؤمنة : أخبروني كل شيء.

المفتي : إذن.. اصغي إلي.. عليك أن تتزوّقي قليلاً، وأن تتهيأي للخروج عندما يهبط الليل.

مؤمنة : وإلى أين تريدني أن أخرج!

المفتي : **(متلفتاً حوله)** أمتأكدة أن أحداً لايسمعنا؟

مؤمنة : لا.. كن مطمئناً.

المفتي : لقد دبّرت السجان، وكل شيء جاهز. حين يهبط الليل، سنأخذك إلى السجن، ونستبدلك بالغانية التي أمسكوها معه.

مؤمنة : والله إنه تدبير لطيف يا مفتينا. هذه فكرة لاتخطر إلا للدهاة من الرجال.

المفتي : ونجاحها مؤكد. ستنقلب الورطة على قائد الدرك، حين يعلم الوالي والناس، أنه قبض على النقيب وزوجته.

مؤمنة : وهل الفرق بين الزوجة والغانية طفيف إلى هذا الحد!

المفتي : المهم أن يُشكل عليهم الأمر، وأن نباغتهم بوجودك في السجن.

مؤمنة : وسأكون أنا التي جرّسوها، ووضعوا على رأسها عمامة النقيب!

المفتي : وحينئذ، سيلعنون أنفسهم، وتنقلب عليهم الورطة.

مؤمنة : **(عيناها شاردتان)** وسأكون تلك التي قبضوا عليها، وهي شبه عارية.. تلك التي كانت تتأود على الإيقاع الذي يضبطه نقيب الأشراف!

المفتي : سيهمل الناس هذا كله، حين يعلمون أن التي فعلت، هي الزوجة.

مؤمنة : والزوجة كانت سجينة البيت، تقرأ حكاية من ألف ليلة وليلة، وتسرح مع غمام الربيع. هل قرأت ألف ليلة وليلة يا شيخ؟

المفتي : ما هذه بالكتب التي يحتاجها الرجل العالم.

مؤمنة : سَتُطرّي قراءتها علمك الجاف.

المفتي : أترين أن علم الدين جاف يا مؤمنة..!

مؤمنة : لا أدري.. أحياناً أظن أنه جاف. ألا تظن أنه جاف؟

المفتي : وما أدراك بعلم الدين، حتى تتحدثي عن جفافه!

مؤمنة : هل أدهشك إذا علمت أني قرأت مكتبة أبي، ومكتبة نقيب الأشراف أيضاً؟

المفتي : **(مأخوذاً)** أعترف أنك تدهشينني.

مؤمنة : ومع الأيام، سأدهشك أكثر. ولكن لنعد إلى الموضوع. تريدني إذن أن ألعب في هذه القصة دور الغانية!

المفتي : حاشاك.. سنطرد الغانية كي تغدو الرفقة مع الزوجة.

مؤمنة : الزوجة ـ الغانية، والغانية ـ الزوجة. هذا تلاعب لطيف.. وخطير أيضاً. لا يا شيخ.. إنك تدفعني في طريق وعر، لا

أدري أين يفضي بي.

المفتي : (متحيراً) وما الوعر في الأمر! ستحلّين مع زوجك بعض الوقت. وحين يتأكدون من هويتك، تخرجان، وينتهي المأزق.

مؤمنة : ينتهي مأزق النقيب، ويبدأ مأزقي أنا.

المفتي : إني لا أفهم.. ألا تريدين أن تخلّصي زوجك من ورطته!

مؤمنة : ولماذا ينبغي أن أخلّصه! لكي أصونه للغواني! وهذا أمر، في الحقيقة، لايشغلني، بل ويمكن أن أتغاضى عنه. هناك ما هو أخطر. ما تطلبه مني، هو مقامرة مخيفة. هو سير على حافة الهاوية، والغواية. ماذا تشعر حين تقف على حافة هاوية؟

المفتي : أحاول أن أكون حذراً.

مؤمنة : هذا جواب الرجل المتزن والمستقر. أما بالنسبة لي، فإن الهاوية تهزّني من جذوري. يرعبني السقوط، ويغويني في الوقت نفسه. وبين الرغبة والرعب، أهتز اهتزاز الشجر في اليوم العاصف. هل تصدق..! معظم أحلامي، هي هذا المزيج من الرعب واللذة. ولكن لماذا أحكي لك هذا كله! أعتقد أني لا أستطيع أن أساعد زوجي أو أساعدك يا شيخ.

المفتي : أمرك غريب يا مؤمنة..! لم أتخيل أني سأتوسل إليك، كي تقدّمي خدمة زهيدة، تنقذ زوجك من ورطة كبيرة.

مؤمنة : أفهم عجبك يا شيخ، فأنت لم يخطر ببالك، أني حية، وأن لي أهواءً وأفكاراً. كان يشغلك النقيب، والأثر الطيب الذي ستخلّفه بادرتك. لا أعتقد أنك فكرت بي إلا كأداة طيّعة، أو شيء من أشياء النقيب.

المفتي : يجب أن تكوني طيّعة، وأنت في النهاية، ملك النقيب.

مؤمنة : أرأيت.! هذا ما تفكر فيه. ما أنا إلا أَمَة، أو ملك من أملاك الرجل الذي تعاديه. وأنت لديك خطة، وتريد أن تظهر

مروءتك، وتنجد سيدي. فكيف لا أفرح، وكيف لا أطيعك في كل ما تدبّره!

المفتي : نعم. إن رفضك يثير عجبي وحيرتي يا مؤمنة.

مؤمنة : إني أرفض، لأني أقاوم الدخول في فتنة الغواية. لو قبلت، فسأنزلق إلى موقع الهشاشة. هشاشتي وهشاشة أوضاعنا. سأكون على طرف الهاوية. وأخشى هذه المرة، أن يجذبني نداء الهاوية بلا مقاومة.

المفتي : أعترف لك، أني لا أفهم مخاوفك، ولا أرى في ذهابك إلى السجن، ساعة من الزمان، كل هذه الأخطار المهولة التي تتحدثين عنها.

مؤمنة : هل اتفق لك، أن تنظر في دخيلتك يا شيخ؟

المفتي : الحمد لله.. ليس في دخيلة نفسي ما أخشاه، أو ما أخجل من إعلانه على الملأ. الحمد لله الذي جعل التقوى باطني وظاهري، وروّض لي النفس الأمّارة بالسوء على الطاعة والرضى.

مؤمنة : سعيد أنت يا شيخ. ومن يتراءى له، أنه يعرف نفسه لابد أن يكون سعيداً. إني أغبطك على ثقتك ويقينك.

المفتي : إن اليقين ضروري لمثلي. ولا أعتقد أن الوقت مناسب للحديث عن النفس وأهوائها. علينا أمر، ينبغي أن ننجزه. أنا أفهم انزعاجك. ومن الطبيعي أن تشعري بالمهانة، وأن تحاولي التعبير عن استيائك. ولكن هذا شأن بينك وبين ابن عمك، يمكن أن تواجهيه فيما بعد.

مؤمنة : أهذا ما فهمته من كلامي..!

المفتي : وماذا تريدين أن أفهم! إن المسألة أكبر من غيرتك، وتوجساتك. وذهابك إلى السجن، أمر تقرّر ولايمكن أن تجادلي فيه.

مؤمنة : ومن قرره؟

المفتي : نحن قررناه. أنا وأشراف المدينة. وإن سمعتنا جميعاً مرهونة الآن، بنجاح هذه الخطة. إنك امرأة متكلّمة، وشخصيتك تثير التقدير. ولكننا في موقف حرج، لايسمح بألعاب الدلال، وتوهمات الخطر.

مؤمنة : أنا أتدلل! إنك لاتفهم شيئاً يا شيخ. وأقول لك للمرة الأخيرة. أنت تدفعني إلى منزلق خطير.

المفتي : لايوجد هذا المنزلق الخطير إلا في أوهامك.

مؤمنة : أهذا رأيك يا شيخ..! ليكن.. إذن، أنت والأشراف قررتم أن أتزوّق مثل غانية، وأن أحلّ في السجن، غانية بدلاً عن الغانية. طبعاً.. أنا أعرف مغزى مروءتك، وغاية الإحسان الذي تسخو به. ما تريده، ليس إنقاذ النقيب، وإنما إذلاله بالجميل، وتطويق عنقه بمنّة لايستطيع الفكاك منها. إنك تريد أن تتحكم به، وتطرحه تحت رحمتك.

المفتي : هل عدنا إلى سوء الظن.!

مؤمنة : دعني أتمّ كلامي. ليس قصدي التعريض، ولا أبالي كيف تصير العلاقة بينكما. أنا موقنة الآن أنك فزت، وأن تدبيرك إذا نجح سيجعل رسن النقيب بيدك. ولكن من الواضح لي ولك، أن التدبير لاينجح إلا إذا وافقت.. ومادامت حياتكم كلها مبنية على المساومات، فإني سأساوم بدوري قبل أن أوافق.

المفتي : وعلام تساومين! إنك تنسين دائماً أني أنقذ زوجك، وأنقذك أيضاً.

مؤمنة : هذا ما أريد أن أساوم عليه. سأتزوّق، وأذهب إلى السجن إذا ضمنت لي الطلاق بعد أن تختم هذه الحدوتة على هواك.

المفتي : **(مبغوتاً، وعيناه تبرقان)** أتريدين الطلاق..؟!

مؤمنة : نعم. ولن أذهب إلى السجن إلا إذا ضمنته لي.

المفتي : وكيف أضمنه..! هذا أمر لايتعلق بي. وربما يفوق طاقتي.

مؤمنة : حين يخرج، سيكون أطوع لك من بنانك. لن يستطيع أن يرد لك طلباً. وعلى كلٍّ، هذه هي رغبتي.

المفتي : لماذا لاتؤجلين الموضوع؟ هذه ساعة غضب. ولا تحمد القرارات في ساعة الغضب.

مؤمنة : لا.. لست غاضبة. وهذا شرطي النهائي، إذا أردت موافقتي.

المفتي : إنك عجيبة يا امرأة.. حقاً إنك عجيبة!

مؤمنة : هل قبلت؟

المفتي : سأفعل ما أستطيع.

مؤمنة : لا.. قل لي سآمر، وسأنفّذ.

المفتي : هذا غريب.. تزوّقي، وحين تظلم الدنيا سيأتي رجل كي يرافقك.

مؤمنة : والغانية.. ستكون جاهزة.

المفتي : **(وهو يخرج)** ما أعجب هذه المرأة! حقاً، ما أعجبها!

مؤمنة : والآن يا مؤمنة.. هل نلبي نداء الهاوية، ونبدّل كل شيء؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل أجلس أمام المرآة، وأبدأ الزواق..؟ في ظهري قشعريرة باردة. هل أرمي اسمي، وأكسر أول قيد كبّلني منذ مولدي..؟ في ظهري قشعريرة باردة..
(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(زنزانة في السجن. يجلس عبد الله مُربدّ الوجه، ومتجمعاً على نفسه. تبدو وردة ضجرة ونافدة الصبر. هبط الليل، والقنديل العتيق المتسخ لايكاد يزيح الظلمة. في أرضية الغرفة طبق عليه بعض الأطعمة).

وردة : هل يمكن أن نقضي الليل هنا! لم يأت أحد. هل تخلى الجميع عنك! وانظر ماذا رموا لنا.. أهذا طعام يُقدم لنقيب الأشراف! أرجو أن تكلمني.. لا أستطيع أن أتحمل الصمت في هذا المكان. ماذا أصابك؟! لم تنظر إلي ولو مرة واحدة. تلفلفت على نفسك، وانعقد لسانك. أتعدّني مذنبة! وما ذنبي! ألم أطلب إليهم أن يعاقبوني بدلاً منك! لو طاوعتني، لما نجحت هذه المكيدة. كم مرة توسلت إليك أن تسجلني على ذمتك! ووعدت ثم ماطلت على عادة الرجال. لو كنت على ذمتك، لما جرؤ أحد على الاقتراب منا. واليوم، شاع أمرنا. **(تقترب منه)** عبودتي.. حبيبي..

عبد الله : **(يلتفت غاضباً)** لا تلفظيها مرة أخرى.

وردة : كنت تحب أن أناغيك، وأن أدللك. لايلائمك العبوس يا عبد الله. إنك تفقد جمالك وسحرك. أرجوك كلمني.. قل أي شيء. ليس عدلاً أن تتنكر لي. تقاسمنا الحلو وها نحن نتقاسم المر. فكر فيَّ قليلاً. إني وحيدة. غداً يأتي أتباعك،

ويخلصونك. ولكن ماذا عني! هل تتركني لشماتة الناس وأذاهم..! وماذا أفعل إذا أهدر المفتي دمي! لاملجأ لي سواك. جعلتني أنذر نفسي لك.. ولم يبق لي سواك. أرجوك أن تسترني، وتحميني. ستكون شهامة، تكسف وجوه أعدائك. ستكون الرجل الذي يستحق أن تنذر المرأة نفسها له. ألم تقل لي إنك لم تعرف لذة المرأة إلا بعد أن عاشرتني! ألم تكن أوقاتنا فوارة بالحب والنشوة! **(تلف كتفه، وتداعب وجهه، فيبعدها عنه بحركة فظة)** أتبعدني الآن..! لايحق لك أن تعاملني، وكأني نجاسة. إني أحاول أن أمسح عنك الحزن. **(تمسح على شعره)**.

عبد الله : **(يزيح يدها بحركة عنيفة)** أوقفي هذا الطنبور، ولا تلمسيني.

وردة : الآن تقول لا تلمسيني.! كم جريت، وبذلت كي تنال لمسة مني. الآن لاتلمسيني.. وهذا الصباح، كنت ترقص على أربعة تحت عجيزتي.! يا خِسة الرجال. **(تضرب وجهها بكفها)** ولكن لماذا لاتتعلمين أيتها المعتوهة، أنك شرموطة بنت شرموطة. كم مرة اتفقنا ألا نثق بالرجال..! كم مرة تواصينا ألا نصدّق وعودهم وأكاذيبهم الدنيئة! منذ ساعات، كان يذوب وَجْداً، ويرعد غيرة، ويطلب أن أرصد جسدي وحياتي لنزواته وشهواته. منذ ساعات، كانت مؤخرتي نمارق الجنة بالنسبة له. والآن، يتقزز من لمساتي، وكلامي، ووجودي معه. ولماذا أنا هنا يا وردة! أليس بسبب السيد النقيب! والسيد النقيب يعاملني، وكأني العار الذي لحقه. إنك خسيس يا عبد الله.. أقول لك في وجهك، إنك خسيس.

(ينهض عبد الله غاضباً، يرفع يده ليصفعها، ثم يتوقف فجأة، تنكسر نظراته، ثم يتقهقر ويتداعى على الدكة التي يجلس

عليها).

وردة : **(بدهشة وحزن)** لماذا لم تصفعني؟ قل شيئاً. اشتمني.. اضربني.. يارب. ماذا جرى لك! لماذا تبدو منكسراً إلى هذا الحد! إني معك. وما قلته لا أعنيه. **(تبدأ بالبكاء)** إني وحيدة، وصمتك يضاعف وحدتي. هل أذنبت في شيء؟ ألم يكن السيران فكرتك! ووجودنا هنا، حادثة عابرة، وغداً تمر. لايجوز أن تنكسر عينك من أجل حادثة عابرة. غداً يأتي أهلك وأصحابك، فيطوون الحادثة، ويعاقبون المكيدة. وأناأرهقني الصمت والخوف. تخيلت أن لي حظوة لديك، وأن هذه التجربة ستوحد مصيرنا. في البداية، فتنني أن نسجن معاً، ولم أتصور أن تتحول، وتنقلب علي. قل لي.. ألم تحبني ولو قليلاً؟

عبد الله : **(هادئاً)** إني أنساكِ.. إني أنسى ما سلف من الأيام.

وردة : لا يا عبد الله.. لا تستطيع أن تنساني الآن. ماذا أفعل.! إني خائفة. وحتى لو نجوت. ليس سهلاً أن أستأنف حياتي التي تركت. وأنت.. أنت بالذات من أجبرني على تركها.

عبد الله : مضت تلك الحياة التي كنت أعرفك فيها. مضت تلك الحياة التي كنت أعيشها. وغدي ظلام، لا أرى فيه منفذاً أو وميضاً.

وردة : أعرف الرجال يا عبد الله. وأعرف أنهم حين يقررون الهرب، يستخدمون جُمَلاً مبهمة، وألفاظاً ملتوية. كنت أظنك مختلفاً، ولكنكم لاتختلفون. تعودت أن أتعايش مع الخسة، والكذب والخفايا المنتنة. لن أنكسر مثلك. وإذا قررت أن تقطع، وتهرب، فسأجد القوة كي أتجاوز خوفي، وأواصل عملي. لست أول خيبة، ولن تكون الأخيرة. يا رب.. ما

أبشع هذا الصمت.. ألا تريد أن تعرف كيف بدأت هذا الطريق؟ نعم.. هي حكاية تروى. وماذا علينا! كلانا قال ما لديه. اسمع يا عبودتي.. يا من نسيت كيف كنت تمرّغ هيبتك وشاراتك وكيانك بين هذين الفخذين. يا من كنت تشهق على سرتي، وتنتف لحيتك من فرط اللذة. اسمع هذه الحكاية.. كان يا ما كان.. كان هناك بنت صغيرة. أحلى من البدر في ليل التمام. وكان أهلها يحتاجون الأكل، لا النظر إلى الجمال. فباعوها إلى أسرة ميسورة. وكان رب هذه الأسرة شيخاً جليلاً، له وزنه عند العامة والخاصة. وسيأتي يوم نكشف اسمه، ونعيّن صفته. كان الشيخ الجليل يلحظني بعنايته. وقبل أن أحيض، كان قد كشف لي الطريق، وسار معي فيه، كان يفسق بي، وهو يعلمني طبقات الفسق ومراتبه. وحين جاءني الحيض..

(صليل معدني مباغت. يُفتح الباب. يدخل عبدو ومعه مؤمنة التي اختفت في عباءة سوداء، وتنقّبت بحجاب أسود).

عبود : **(هامساً)** لا تقل شيئاً يا سيد الأشراف. ولاتحدث أي ضجة. **(إلى وردة)** هيا أيتها المرأة، وتعالي معي.

وردة : من أنت؟ ولماذا أجيء معك؟

عبدة : ابلعي لسانك، وتعالي معي.

وردة : ولماذا أبلع لساني؟ أمسكوني مع النقيب، ولا أريد أن أخرج إلا معه.

عبدو : امشي معي، وإلا حطمت وجهك.

وردة : على مهلك.. على مهلك.. كسرت يدي. أريد أن أمشي على ضوء. ومن المحروسة بسلامتها.؟

عبدو : **(وهو يجرها بقسوة)** لست فاضياً لطقّ الحنك.

مؤمنة : انتظر.. انتظر..

(تخلع مؤمنة ملايتها ونقابها).

وردة : أيهون عليك يا عبد الله ما يفعله بي!

مؤمنة : تعالي أيتها المرأة!

وردة : اسمي وردة يا من تسرقين مطرحي.

مؤمنة : **(برقة)** عاش اسمك يا وردة. خذي.. إلبسي الملاية، وضعي النقاب.

وردة : لا ياست.. أنا أحب السفور.

مؤمنة : اسمعي يا وردة.. أنا زوجته. وجئت كي أُنقذك، وأنقذه.

وردة : **(مبغوتة)** زوجته..!

عبدو : افعلي ما تقوله لك.

وردة : **(مرتبكة)** كيف آخذ ملايتك ونقابك. أنا تعودت على السفور، أما أنت..

مؤمنة : إن الموقف يقتضي أن أكون سافرة. ولعلي سأتعوّد على السفور بعد هذه الليلة. يا الله.. الوقت ضيّق. إلبسيها.

عبدو : إلبسيها، وخلصينا.

وردة : **(وهي ترتدي الملاية، وتتقّب)** وكيف أردّها لك؟

مؤمنة : لاتشغلي بالك. ربما زرتك قريباً.

وردة : وتزورينني..!

عبدو : **(وهو يجر وردة)** يا الله.. امشي.

(يخرجان بخطئ متعجلة وخفية، ثم ينطبق وراءهما الباب، ويرتفع الصليل المعدني).

مؤمنة : ألا تسأل لماذا جئت!

عبد الله : أخجل أن أسأل.

مؤمنة : لا تتصرف كطفل كبير. لماذا تُنكس عينيك، وتتحاشى النظر إلي؟

عبد الله : هذا اليوم، كسر عيني، وكسر روحي أيضاً. أود لو أغيب،

فلا أرى أحداً، ولا يراني أحد.

مؤمنة : هوّن عليك. ما هي إلا فضيحة صغيرة، ومجيئي سيمحوها من خواطر الناس. غداً، سيكون بوسعك أن تعود عبد الله الذي يختال بين أعوانه وغانياته.

عبد الله : يحق لك أن تغضبي، وأن تلومي.

مؤمنة : لست هنا كي أغضب أو ألوم.. ولكنك لاتسألني لماذا جئت!

عبد الله : لماذا جئت؟

مؤمنة : لأن الوالي قد يبعث رسولاً، كي يتأكد أن الغانية التي أوقفوك بسببها، ورموك في السجن معها هي زوجتك. انظر إلي.. ألا ترى كيف تزوقت، وماذا أرتدي؟ ينبغي أن أكون الغانية. ألا أشبه الغانية؟

عبد الله : ومن حَبَكَ هذه القصة؟

مؤمنة : وهل يستطيع أن يحبك هذه القصص إلا المفتي.

عبد الله : **(ذاهلاً)** المفتي..!

مؤمنة : نعم المفتي.. ولعله الآن ومعه الأشراف عند الوالي.

عبد الله : المفتي ومعه الأشراف..! هذا هو التلف الذي أخبرني أبي عنه.. من الصعب أن أشرح لك.. كم تقلّب حالي منذ دخلت هذه الزنزانة..! أشعر أني في مخاض صعب.

مؤمنة : كلنا الآن في هذا المخاض.

عبد الله : حين جلست في عتمة هذا المكان، وكانت لاتزال آثار السكر تغشى عقلي وبصري، تراءى لي والدي. لم يكن غاضباً، بل كان حزيناً. بصوته العميق والرخيم، سألني.. ماذا فعلت بميراثي يا عبد الله! وتمنيت لو تبلعني الأرض إلى قعرها. غضضت بصري، واحتواني العار كأنه جلدي. حقاً.. ماذا فعلت بميراثه! وقال لي، وكأنه يواسيني.. أتلفت

ظاهرك، فتدارك باطنك، وأنقذه من التلف. ولاتنسَ يا عبد الله أني عشت سبعين سنة. ووالله لو وضعوا هذه السنين السبعين على طبق وعرضوها أمام الخالق، لما خجلت من شيء فيها مهما صغر شأنه. نعم.. خلال ساعات قليلة يخيّل إلي أني ألقيت حجاباً على مافات، وأني أتحسس في القمة باباً إلى ما تبقى من فضلة العمر. لا أدري.. ولكن حياتي ستتغيّر أو تغيرت فعلاً. وأرجوك أن تسامحيني. أعلم أني آذيتك، وأعدك أني سأكفّر عن كل أذىً ألحقته بك.

مؤمنة : سيظل أبوك يلاحقك إلى مماتك يا عبد الله. وعلام أسامحك! لم تؤذني في شيء. تذكّر.. هل عاتبتك من قبل! هل سألتك يوماً، أين كنت، وماذا فعلت! هل استنكرت تلك الروائح التي كنت تحملها بلا حرج إلى فراشنا!

عبد الله : أعترف أنك امرأة من معدن نادر، وأنك بالتسامح والكياسة والكرم علوت علي كثيراً.

مؤمنة : لم يكن همي أن أعلو عليك. كنا منفصلين منذ ليلة زفافنا، وكان كل واحد يدور في حلقة نفسه. كنت مشغولاً عني، وكنت مشغولة عنك. ولم يكن هناك أي دافع جدي للغيرة أو النكد. ما كان بيننا إلا العقد، والسكن، وتلك العناقات المخنوقة تحت ثقل الحياء والهيبة والطهارة. لا.. لم يكن تسامحي كرماً، بل كان نوعاً من اللامبالاة. ولو حاولت أن أفكر في زواجنا، لما تذكرت إلا الصمت وبعض المظاهر، ولزوجة تلك العناقات. نعم.. إن أحداث هذا اليوم، ودخولنا هذه الزنزانة سيعجلان بالمخاض الذي ينتظره كل منا.

عبد الله : هل كان زواجنا سيئاً إلى هذا الحد!

مؤمنة : كان زواجنا، زواجاً لا أكثر.

عبد الله : سأكفّر عن كل لحظة فاتت.

مؤمنة : قلت لك.. ليس هناك ما تكفّر عنه. لا أحمل لك أي ضغينة أو لوم، ولم أشعر يوماً بالغيرة. أو إذا شئت الحق، كنت أغبط تلك الغانيات، ولكن ليس لأنك كنت معهن، بل لأنهن غانيات. يوم زفافنا أجلسوني على الأسكي، وأوصوني أن أغضّ طرفي، وأن أتجهم، وأن أخجل. ظهرت راقصة في الجوق الذي كان يحيي حفلة الزفاف. كان جسدها حراً. يكاد يضيق به فناء داركم الواسعة. كان جسدها يتدفق، يتماوج، يمتد، يضحك، ويشهق. كانت حرة كالهواء، وثوبها البرّاق يود لو يتساقط، ويتركها تجمع وتضيء الليل. كم تمنيت أن أنهض عن الأسكي. أن أمزق الثوب الذي يحزمني، ويصيبني كالقالب. وددت أن أقفز، أن ألتقط الإيقاع، وأنضم إلى الرقص. يومها أحسست أني قادرة على الرقص حتى الصباح. وكنت متيقنة أني لن أمس الأرض إلا مساً عابراً. سأظل في الجو، في الهواء، في هذا الفضاء الليلي المنعش. وسأكون حرة، حرة مثلها، حرة إلى الأبد. ويومها قلت في نفسي.. لعلي أفعل ذلك حين يخلو بي. الغرفة ضيقة، ولكني سأجعل الجدران تنزاح، وسأترك جسدي يتدفق، ويتضاعف **(باشمئزاز)**.. وأنت تعرف الباقي. على كل، لم أغامر بالمجيء إلى السجن كي نتحدث عن زواجنا، ونتذاكر أيامنا. قل لي.. ماذا كنتما تفعلان عندما باغتكما الدرك؟

عبد الله : يا رب.. إنك مجروحة، وجرحك عميق. لاشك أن جرحك هو الذي يتحدث من فمك. وأنا لا أعرف إن كنت أتحمل مزيداً من الخجل فوق خجلي.

مؤمنة : لست مجروحة، ولا تلم نفسك. أجبني.. ماذا كنتما تفعلان؟

عبد الله : يا رب.. وفِّرِ عليَّ هذا الهوان. ولماذا تريدين أن تعرفي!

مؤمنة : لكي تكون الأفعالِ والأقوال متطابقة. هل كانت ترقص؟ **(يومئ برأسه خجلاً)** علامَ كانت ترقص؟

عبد الله : **(مخفياً وجهه بيديه)** لا أذكر..

مؤمنة : ينبغي أن تتذكر. انظر.. **(تبدأ بالتلوي استعداداً للرقص)** نعم.. أنا أرقص أيضاً. ينقصني شيء من المرونة والخفة. لكني قريباً سأتجاوز هذا العيب. يا الله.. أعرف أنك تضبط الإيقاع جيداً. لانحتاج إلى الطبلة. يمكن أن تصفق، وتُوقِّع لي اللحن.

عبد الله : يا رب.. ماذا تفعلين! أنت مؤمنة! أنت زوجتي!

مؤمنة : أنا الآن غانية، قبضوا عليك معها. ساعدني وإلا فسد التدبير كله. هل كنت تضبط الإيقاع بالطبلة أم بالزهر؟

عبد الله : **(ذليلاً)** بالطبلة.

مؤمنة : طيب.. عندما تتذكر اللحن، اتبعني.
(تبدأ مؤمنة بالرقص. في البداية تكون حركاتها مرتبكة وخشنة ثم ترقّ وتزداد إيقاعية وجمالاً).

عبد الله : **(يتابعها مبهوتاً)** يا رب.! يا رب.! يا رب.!
(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(في دار الوالي. الوالي، ويبدو ناعساً ومنزعجاً. المفتي وحميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة وصفوت العابدي وهو مندوب الأشراف في المدينة).

الوالي : يا محمد.. هذه قصة لاتدخل إلى العقل. أفكر.. وأفكر.. وأجدها لاتدخل إلى عقلي. بانتظار عودة الكشافة، يجب أن نستدعي قائد الدرك لكي يوضح لنا غرضه، وسبب هذا الفعل.

المفتي : لا يا حضرة الوالي.. لانقبل أن يضمّنا معه مجلس. هذا خصمنا والمفتري علينا. ونحن كما قلت ضاق بنا العيش، ولم يعد يأمن المرء على الاختلاء بأهله وحلاله. كيف يمكن أن نقعد في مجلسه بعد هذه الإهانة؟

صفوت : والله.. هذا رأينا جميعاً. بعد هذا التعدي على الحرمات! صار العيش في مدينتنا ذلاً وكرباً.

المفتي : لم نعرف كيف نهدئ الأشراف، ورجال الحارات. إنهم كالبارود الذي ينتظر شرارة. أعطوني مفاتيح دورهم، وسندات أملاكهم وقالوا لنا، أعطوها للوالي إذا كان يقبل لنا هذا العار، فما عادت الديار ديارنا، وماعادت المدينة أرض سكن لنا. وكما ترى.. المفاتيح والسندات بين يديك يا حضرة الوالي.

الوالي : أنتم تعرفون أني لا أحب المشاكل. وهذا الحديث عن البارود لايعجبني.

صفوت : كيف لايغضبون وهم يرون أن رجال الأمن لايوقرون لهم كبيراً! يقتحمون خلوة نقيب الأشراف مع حريمه دون حياء، ويجرونهما وسط البهدلة إلى السجن.

المفتي : نحن نعرف حرصك على الهدوء واستقرار البلد. وإننا لم نقصّر في تهدئة الأحوال وضبط الاستقرار، ولكن ما حدث اليوم لايمكن السكوت عليه. وما جئنا إلا لكي تنصفنا، وتعيد لنا حرمتنا. أما المفتري، فنترك أمره لعدلك وتقديرك.

حميد : الحقيقة أن شخصاً متهوراً مثل عزت بيك لايصلح أن يكون قائد الدرك.

صفوت : والعدل أن يرمى في السجن بدلاً من النقيب الذي افترى عليه.

الوالي : لا تملوا عليّ ما ينبغي عمله مع موظفي ولايتي.

المفتي : لا أحد يملي عليك شيئاً يا حضرة الوالي. إنها أفكار نتداولها. هل يمكن لرجل حصيف ونزيه كوالينا أدامه الله، أن يترك هذه الحماقة الشنيعة بلا عقاب!

صفوت : ونقول لك بصراحة إن الخواطر لن تهدأ مالم يعاقب المفتري علينا.

الوالي : طيب.. دعونا ننتظر ما يأتي به الكشافة أولاً يا محمد.. هذه قصة لا تدخل إلى العقل.

(يدخل خصي الحريم).

الخصي : سيدي.

الوالي : ماذا! هل تقصيتم الأمر جيداً؟

الخصي : نعم. والمرأة المسجونة مع النقيب هي زوجته.

الوالي : أهذا أكيد؟

الخصي : لا مجال للشك يا سيدي.

الوالي : طيب.. انصرف.

المفتي : بان الحق وزهق الباطل يا حضرة الوالي.

الوالي : نعم.. نعم. والله، قصة تحيِّر العقل.

صفوت : بعد هذا.. أتلومنا إن غضبنا!

إبراهيم : الإهانة لحقت بالمدينة كلها.

الوالي : طيب.. طيب.. سنصلح الخطأ فوراً. سنفرج عنه، وسنعتذر له أيضاً. وأنتم.. لاتؤاخذوني. هذه القصة لم تدخل عقلي في البداية، لأني كنت أعتقد أن قائد الدرك رجل عاقل ويُعتمد عليه.

صفوت : من حقنا أن نطلب عقابه.

الوالي : سأرى.. سأرى. ولكن سأعتمد عليكم في تهدئة الناس، ومنع أي شغب، تعرفون حبي للاستقرار، ولا أريد أن تلطخ ولايتي الاضطرابات والمشاغبات.

المفتي : ما دمنا نتعاون، وحبل الود بيننا ممدود، فإني أعدك أن تظل الشام كالبركة الساكنة، لايعكر الموج سطحها.

الوالي : مشكور يا مفتينا. وإن شاء الله لاينقطع حبل الود ما دمت والياً على الشام. وأنا الآن مبسوط جداً، لأنه لم يعد هناك خلاف بينك وبين نقيب الأشراف.

المفتي : إهانة الغريب توحد الأهل، وتمحو الخلافات العابرة.

الوالي : هل تريد أن تذكّرني بغربتي!

المفتي : أستغفر الله.. أنت رأسنا، وأصبحت من عظام رقبتنا. والآن نستأذن في الانصراف. وسامحنا لأننا أيقظناك من جوف الليل، وأتعبناك في السهر معنا.

الوالي : لا.. لا.. كان ضرورياً أن تأتوا، وأن أعلم ما يجري. إذهبوا، وهدئوا الرجال. وأرجو أن تصحو المدينة غداً بلا عكر. قبل

أن تصلوا بيوتكم، سيكون النقيب قد أفرج عنه، وسنحاول أن نردَّ الاعتبار لكل الأشراف ووجهاء البلد. انتظروا.. لعلكم نسيتم المفاتيح والسندات.

صفوت : سنتركها أمانة حتى تقتصَّ لنا من الذي أهاننا.

الوالي : لا.. لا. خذوها.

المفتي : سنأخذها، وتأكدوا أن عدل حضرة الوالي لن يخذلنا.

(يحيّون، ويخرجون).

الوالي : ثعابين.. والله.. كلكم ثعابين. وهذا الخرا عزت. ماذا يريد! هل يحاول أن يشعل الفتنة في ولايتي! أيريد أن يزعزع مركزي! هل يجري الماء تحتي وأنا لا أدري! إف.. إني نعسان، والصباح رباح.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع

(في السجن. عزت ودركيان يمسكان بذراعيه. السجّان. عزت شديد الغضب مكفهرّ الوجه وعلى زاويتي فمه زبد دبق. إنهم جميعاً أمام الزنزانة).

عزت : جنون.. ورأس أمي، هذا جنون. ألم تكونا معي! **(فجأة بلهجة آمرة)** اتركا ذراعيّ، وقدما سلاماً تعظيماً.

دركي (١) : لا تصعّب مهمتنا يا عزت بيك.

عزت : أنا قائدكم، وأنا الذي أعطيكم الأوامر.

دركي (١) : لعلك كنت.

دركي (٢) : الوالي فوق القائد. والوالي أمر أن توضع في السجن، ونحن لانستطيع أن نخالف أمر الوالي.

عزت : هذا الوالي رِمّةٌ يتلاعب بها الواشون والخصيان.

دركي (٢) : **(لزميله)** تظاهر بأنك لم تسمع ما قال.

دركي (١) : وماذا قال! لا.. لم أسمع ما قال.

عزت : أتتشاطران يا أولاد الزواني! **(بلهجة آمرة، والدركيان يستجيبان بحركة لاشعورية ثم يتراجعان)** أنت وهو.. أجيبا.. البارحة، حين كبسنا نقيب العرصات. من وجدنا معه؟

دركي (١) : وجدنا معه امرأة.

عزت : أعرف أنها امرأة. ولكن من كانت تلك المرأة؟

دركي (١) : تبيّن أنها زوجته.

عزت : كيف تبيّن! ألم تكن تلك الغانية التي اسمها وردة!

دركي (٢) : نحن لا نعرف. قلت لنا إنها غانية، وصدّقنا. أمرتنا أن نقبض عليهما، ونفّذنا. ونحن ما أدرانا.. المرأة تشبه المرأة. واليوم علمنا أن المرأة التي قبضنا عليها كانت زوجته.

عزت : لم تكن زوجته.

دركي (١) : الوالي والناس جميعاً يؤكدون أنها زوجته.

دركي (٢) : وهذا يعني بالدليل واليقين أنها زوجته.

عزت : حلّ عن سماي، أنت وواليك. البارحة تفرجت عليهما الشام كلها، ولم يذكر أحد أنها زوجته. فماذا حدث اليوم! اسمع أيها السجان.. أنت رأيتها. قل لي.. هل كانت زوجته!

السجان : لم أنظر إليها. ولكن حين أرسل الوالي، أطال الله عمره، وفداً من حريمه وخصيانه، تبيّن أنها زوجته.

عزت : ألم يأت أحد إلى السجن قبل الحريم!

السجان : لم يأتِ أحد.

عزت : لعلك غفلت، أو ذهبت لأمر.

السجان : لا أغفل، ولا أغادر السجن.

عزت : أتقسم؟

السجان : أقسم برأس أمك. ليس لك علي يمين. لو تبصرت، وتحققت، لتجنبت هذه البهدلة.

عزت : جنون.. ورأس أمي هذا جنون. يريدون أن أفقد عقلي. وكأنني لا أعرف البلد ومافيها. وكأنني لا أعرف وردة، ولا أميّز وجهها. أيها الدركي.. اذهب، واحضر البنت وردة. ابحث عنها في بيتها، في أوكار المدينة وحواريها، وأحضرها إلي حالاً. هيا تحرك..

دركي (١) : (لزميله) ماذا قال؟

دركي (٢) : هل قال شيئاً؟

دركي (١) : يا الله يا أبا إبراهيم.. لماذا لاتفتح الزنزانة وتخلصنا!

عزت : ألم تعد لي طاعة أيها الجربوعان! انتظرا.. سأحل هذا اللغز، وسأعود إليكم. ماذا حدث! كيف تخفى الحقيقة في ليلة واحدة! كيف تنقلب الحقيقة خديعة، والخديعة حقيقة! هل جُنَّ الوالي..! هل جن الناس! هل جنت المدينة..!

دركي (١) : الكل مجانين، وأنت العاقل الوحيد.

عزت : **(صارخاً)** لم تكن زوجته، وكلكم تعلمون.

دركي (٢) : بل كانت زوجته.

دركي (١) : الوالي يؤكد، ونحن نؤكد، والناس كلهم يؤكدون.

دركي (٢) : لن نقضي النهار في الأخذ والعطاء. ماذا تنتظر يا أبا إبراهيم!

السجان : يجب أن نغيّر زيه قبل أن نضعه في السجن. القانون يمنع سجن الرتبة، والزي الحكومي.

دركي (١) : صحيح.. ألم يقل الوالي انزعوا رتبته، وارموه في السجن!

السجان : معلوم.. الزي والرتبة لهما حرمة.

دركي (٢) : وماذا يلبس؟

السجان : جلباب المساجين.

عزت : ولماذا لايكون قميص المجانين!

دركي (١) : إذا واصلت العناد والهلوسة، سيأتي دوره. هيا ساعدنا. واخلع هذه الملابس.

عزت : لاشك أن العالم اختل، والحقيقة ضاعت. كيف تضيع حقيقة بهذا الوضوح!

(ينزع الدركي الأول رتبته، يناولها للسجان فيما يفك الدركي الثاني أزرار سترته).

عزت : لم يخبرني مخبر، بل رأيت ورأوا معي. إنهم يعرفون الحقيقة ويخفونها. إنهم يكذبون. **(يسحب الدركي السترة من ذراعيه، ويبقى بقميصه الداخلي)** إنكم تكذبون. أخفيتم

الحقيقة كي تنالوا مني. كي أبدو مختلاً **(بعد فك الحزام والأزرار، يسقط البنطلون إلى قدميه، يلاحظ جسده شبه العاري، يستيشط غضباً)** ماذا فعلتم يا أولاد القحبة! **(يصفعه الدركي الثاني صفعة مدويّة، فينظر إليه عزت ببلاهة، وهو يضع يده على خده)** أتصفعني..! كيف تجرؤ..!

دركي (٢) : ومن أنت حتى تشتم الدرك!

عزت : أنا عزت بيك.

دركي (٢) : طز.. ما أنت الآن إلا سجين مخبول. **(يحاول عزت أن يضربه، فيمسك الدركي يده)** اهدأ.. وإلا عفستك برجليّ. هات الجلباب يا أبا إبراهيم.

عزت : **(وهم يلبسونه جلباب السجن)** جنون.. ورأس أمي هذا جنون.. اختلت الموازين، وعميت العيون، ودفنت الحقيقة بمؤامرة وتدبير. لم تكن زوجته، ولو أجمعت السماوات والأرض على ذلك.

(بعد ارتداء الجلباب، يفتح السجان الزنزانة، ويدفع الدركيان عزت إليها ثم يغلق السجان الباب).

عزت : **(من وراء القضبان)** لم تكن زوجته. سأكشف هذا اللغز، وأعود إليكم يا أولاد الزواني.

دركي (١) : الآن.. بعِّر كما تشاء.

دركي (٢) : هيا بنا..

عزت : **(صارخاً)** انتظرا.. بحق العشرة.. هل أطلب منكما خدمة صغيرة؟

دركي (١) : ماذا تريد؟

عزت : ابحثا عن وردة، وقولا لها أن توافيني إلى السجن.

دركي (١) : أتحسبنا مجانين!

دركي (٢) : دع عنك هذا الهبل. ولا تزد غضب الوالي غضباً.

(يخرج الدركيان).

عزت : أقسم. إنها لم تكن زوجته. يريدون أن أجن.

السجان : اسمع.. لست قاضياً لك. ما أعرفه هو أن المرأة التي خرجت من السجن كانت زوجته.

(يدخل عبدو).

عزت : **(يصيح فرحاً)** ها أنت يا عبدو.. أين المفتي؟ انظر ماذا فعلوا بي.

عبدو : **(للسجان)** هل تأذن لي بالكلام معه؟

السجان : تفضل.. تفضل.. يا عبدو.

عبدو : **(وهو يواجه عزت من وراء القضبان)** جئت أحمل لك يا عزت بيك أسف سيدي وملامته.

عزت : ملامة.. وعلام يلومني!

عبدو : زدته حرجاً على حرج. كيف يجوز أن تقبض على النقيب وهو في خلوة مع حريمه!

عزت : لم تكن حريمه. قل للمفتي، وأكد له أنها لم تكن زوجته. صدقني في الجو ما يريب.

عبدو : اسمع يا عزت بيك. تحققنا، وتأكدنا أنها زوجته. والناس كلهم مقتنعون أنك قبضت عليه وهو في خلوة مع زوجته.

عزت : كانت وردة يا عبدو. أنت تعرف وردة، والعفصة يعرفها أيضاً. أرجوك.. قل للمفتي أن يطلبها، ويسألها.

عبدو : قلت لك.. تحققنا، وتأكدنا. كان النقيب مع زوجته. وهذه القضية انتهت. جئتك لأسألك إن كنت تحتاج شيئاً، وكيف يستطيع المفتي أن يساعدك.

عزت : لا أحتاج إلا إلى الحقيقة. وأطلب من المفتي أن يساعدني على كشفها.

عبدو : الجميع تقصّوا الحقيقة. الوالي والمفتي والأشراف. والجميع تأكدوا أن المرأة التي اختلى بها النقيب كانت زوجته.

عزت : (غاضباً) ورأس أمي.. ليست تلك هي الحقيقة.

عبدو : أيمكن أن يخطئ الجميع، وأن تكون وحدك على صواب! لاشك أن الغضب والتهور غشّيا بصرك يا عزت بيك. ألا تريد شيئاً آخر؟

عزت : لا.. لا أريد. وأخشى الآن أن يكون السم الذي يسري في جسدي وعقلي هو من بعض لدغات المفتي. جنون.. ورأس أمي هذا جنون. تريدون أن افقد عقلي، ولاشك أني سأفقده. قل للمفتي أن يفتينا في هذه القضية. أيكفي أن يجمع الناس على أمر كي يغدو حقاً وصواباً! ألا يمكن أن ينخدع الناس! أليس هؤلاء الذين يصدقون اليوم أنها زوجته هم الذين كانوا البارحة يصفرون ويستنكرون! أيجوز أن تخفى الحقيقة، وتُبدى حسب ما يشاء الهوى أو حسب ما تشاء المصلحة! هذه مسائل.. فهل يفتينا بها؟! أقول لك.. الحقيقة تظل هي الحقيقة. والمرأة التي قبضت عليها لم تكن زوجته.

عبدة : سيصلك الطعام كل يوم.

عزت : وفروا الطعام. لا أريد.. لا أريد شيئاً إلا الحقيقة. لم تخدعني عيناي، وما رأيته كان واضحاً.

عبدو : سأمر عليك بين وقت وآخر.

عزت : والمفتي.. ألن يمر علي؟

عبدو : سبّبت له ما يكفي من الإحراج. ولولا الودّ ما أرسلني.

(يخرج عبدو).

عزت : جنون ورأس أمي هذا جنون. ماذا أفعل! كيف اتفق أن أحداً لم يقف معي! كيف اتفق أني الوحيد الذي رأى! أحقاً رأيت! جنون.. ورأس أمي هذا جنون.

(تتلاشى الإضاءة)

المشهد الثامن

(في بيت عبد الله. عبد الله حافي القدمين، يدخل غرفة الضيوف متراجعاً بظهره وهو يرحب بضيفه. يدخل المفتي لا مبالياً بترحيب عبد الله، أو رد التحية له).

عبد الله : لو علمت أنك ستشرفني، لاستقبلتك حافياً من أول الحارة.

المفتي : حين زرتني، أغلقت بابي دونك كيلا تظن أن عداوتنا زالت. وجئت إليك الآن، والعداوة هي هي. ولكن بعد تلك الفعلة الشنيعة، هناك حساب ينبغي أن يُصفّى.

عبد الله : صدّقني.. مازلت أغسل قلبي حتى خلا من كل عداوة.

المفتي : ما جئت مصالحاً يا عبد الله.

عبد الله : لك صدر الدار، وصدر صاحبها ولو جئت تطلب خرابها.

المفتي : ألا تشعر بالحياء..؟

عبد الله : ألا أشعر بالحياء!. كلما فتر شعوري بالحياء، لطمت وجهي، وأنعشت ذاكرتي حتى يأخذني الصّغار، ويصبغني الاحمرار. وحيائي بين يديك هيّن لو قيس بحيائي من خالقي.

المفتي : لا تتلاعب بالندم والزلفى إلى الخالق. خير لك الآن أن تستر طابقك، وتدفع ضريبة طيشك واستهتارك.

عبد الله : ماعاد لي مطمع في عرض من أعراض هذه الدنيا يا شيخ قاسم. وما تراه ضريبة مناسبة، سأدفعه في الحال.

المفتي : لطّخت نقابة الأشراف، ومرّغتها بأفواه العامة والقيل والقال.

ومثلك لا يليق لهذا المنصب، ولايؤتمن على هيبته وشرفه.

عبد الله : قلت لك.. تركت التعلق بزينتها وبرقعها. وإني الآن أتخلى أمامك عن منصب النقيب. وأترك لك وللأشراف اختيار نقيب يحل مكاني.

المفتي : هذا قرار لاتراجع عنه يا عبد الله.

عبد الله : أعطيتك كلمتي يا شيخ، وإن أردت شهوداً أحضرنا الشهود.

المفتي : الآن تتصرف بحصافة، وتقطع بعضاً من أسباب العداوة.

عبد الله : لن تبقى عداوة بإذن الله. صفا قلبي، وأرجو أن يصفو قلبك.

المفتي : لدي مرشح للنقابة، وأريد أن تدعمه.

عبد الله : إن تسامحت.. أود أن أظل بعيداً عن هذا الأمر. وإن أمرت.. فسأوفّيك شيئاً من معروفك، وأدعم مرشحك.

المفتي : أريد مرشحي نقيباً.

عبد الله : إذاً.. سأدعمه بما أستطيع.

المفتي : بقيت واحدة.

عبد الله : نعم.. بقيت دناءة تؤرقني، وتثقل على ضميري. أفكر بالذهاب إلى الوالي، والبوح بالحقيقة كي أنقذ ذلك الرجل المغدور.

المفتي : من تقصد؟

عبد الله : قائد الدرك.

المفتي : لا.. دعه في السجن كي يتربّى خلفه، ويتعلم توقير الأكابر، وعدم الاستخفاف بهم. ولو أعلنت الحقيقة للوالي، فستضعنا جميعاً في موقع الكذب والحرج. لا.. دعك من قائد الدرك، فقد تجاوز حدّه ويستحق ما أصابه. ما عنيته هو أمر آخر يحرجني الحديث فيه. ولكني قطعت على نفسي عهداً، ولا بد من وفاء العهد.

عبد الله : لاتتحرج يا شيخ، واطلب ما بدا لك.

المفتي : عليك يا عبد الله أن تطلق زوجك.

عبد الله : أطلّق زوجتي..؟! ولماذا؟!

المفتي : كان ذلك شرطها للذهاب إلى السجن.

عبد الله : أعرف أنها كانت مجروحة وغاضبة. ولكن أريد أن أصلح حياتي، وأن أعوّضها عن الجرح وحماقات الأيام الفائتة.

المفتي : أعتقد أن المسألة أصعب من ذلك. لم تكن لوامة، ولم تكن غاضبة. طبعاً أنت أدرى بحريمك مني. إلا أني لم أستطع إقناعها، إلا بعد أن انتزعت هذا الوعد مني.

عبد الله : ووعدتها!

المفتي : تلك إرادتها، ولم يكن أمامي سبيل آخر. لولا أن الظروف تحكمت، ما سمحت لنفسي أن أتدخل في شؤونك العائلية.

عبد الله : يا رب.. تلك إشارة أخرى تأتي. أهذا هو الطلاق الأصغر الذي تبلوني به، كي أقوى على الطلاق الأكبر!

المفتي : كنت مضطراً يا عبد الله، والوعد هو الوعد.

عبد الله : هل أفهم أنك تأمر بالطلاق؟

المفتي : الأمر ليس أمري. هي التي اشترطت، وهي التي رفضت الحديث عن إصلاح ذات البين. كان موقفها حاسماً، وقولها عجيباً، وأنت أعلم بأهلك مني. إذا شئت أن تجرّب، يمكن أن أمهلك وقتاً.

عبد الله : معك حق. لاحظت أنها تغيّرت. طلبت عفوها، فلم تبالِ. وحاولت الحديث عن أيامنا المقبلة، فنفرت ولم تصغ إلي. منذ تلك الليلة، وكلانا يهيم في دنيا من الصمت والوحشة. يا رب.. ساعدني.. أهي إشارة كي ألبّيها!

(ينحطّ على كرسي، ويغرق وجهه في غياب قلق).

المفتي : : **(يمهله فترة، وهو ينظر إليه شامتاً ومتعجباً)** ما جوابك؟

عبد الله : **(يتمتم، وما زال غائباً)** هي إشارة.. لاشك أنها إشارة.

المفتي : ماذا ألمَّ بك! هل تنتظر وحياً من السماء! هذا جزء من الفاتورة يا عبد الله.

عبد الله : **(مجفلاً)** نعم.. هي إشارة. إنها طالق منذ الساعة يا شيخ.

المفتي : بارك الله فيك. لقد صفّيت الحساب كله. الآن، يمكن أن نقلب العداوة صلحاً وصداقة.

(يقترب المفتي من عبد الله، ويفتح له ذراعيه. لكن عبد الله يتجاهله، وينهض، فيتمشى في الغرفة كالمأخوذ).

عبد الله : يا رب.. ترأف بضعفي، وهشاشة حالي. يا رب.. علّمني كيف أميّز بين إشارتك وتخبّلات عقلي. يا رب.. قوّني على تحمل حالي، ومجاهدة حالي، وقهر حالي.

(يركع على الأرض، ويفتح يديه بحركة تضرع، ويرفع رأسه ناظراً إلى الأعلى. يتأمله المفتي لحظات ثم يهز رأسه كالمشفق، ويخرج. يظل عبد الله وقتاً طويلاً، وهو ساكن في وضعيته يهمهم ضراعات لانسمعها. يدخل الخادم.. ينظر إليه ببلاهة، ثم يقف منتظراً).

الخادم : **(يبدأ هامساً)** سيدي.. سيدي.. سيدي.. **(يقترب الخادم منه بخطئ مترددة، ويرفع صوته)** سيدي..

عبد الله : **(كمن يصحو بغتة)** آه.. ماذا..؟ أجفلتني يا حارم.

الخادم : سيدي.. خشيت أن تنسى.. الليلة عرسي. ألم أشرح لك! وعدت تلك الملعونة أن أعرّس عليها يوم عودتك إلى البيت بسلامة. وبالزور صبّرتها هذا الأسبوع. ستفضحني إن أجّلت، أو تهرّبت.

عبد الله : أتتزوج الليلة يا حارم؟

الخادم : هل حدث شيء يا سيدي! لم أحدّد الموعد إلا برضاك، وموافقتك.

عبد الله : نعم.. نعم.. أذكر. اذهب، تزوج.

الخادم : ألن يبارك سيدنا العرس!

عبد الله : لا.. إني طلّقتها ثلاثاً.. ثلاثاً.. بتاتاً. صارت الدنيا، وأعراسها حراماً.. حراماً. دعني في خلوتي.

الخادم : ألن أبقى في الخدمة يا سيدي!

عبد الله : ماعدت أحتاج خدماً يا حارم.

الخادم : هل يعني أنك تطردني يا سيدي!

عبد الله : وهل يستطيع المطرود أن يطرد!

الخادم : إني لا أفهم..

عبد الله : ومن الذي يفهم! إذهب إلى الدنيا التي تناديك، وعرّس.

الخادم : سيدي.. **(يشير له عبد الله بالخروج، يتراجع الخادم حائراً)** لا أستطيع التأجيل. ستفتك بي لو أجّلت. كنت أحلم أن يزيّن حضورك عرسي. **(هامساً)** وسيدتها وردة ستتكرم علينا وترقص في عرسنا. إني مبلبل الخاطر، ولا أستطيع التأجيل. **(ينتظر عند الباب، وحين يراه مستغرقاً في همهمته، يخرج. بعد قليل، يظهر شبح ولي يأتزر بثوب أبيض يشبه الكفن، ويخفي وجهه. حركاته بطيئة، وصوته رخيم. يسطع، وكأنما يحف به ضوء لانعرف مصدره).**

الولي : الطريق طويل، والزاد قليل.

عبد الله : أهو أبي الذي يتكلم!

الولي : أبوك من أرشدك. أُمرت أن أصطفيك مريداً، وسأكون لك مرشداً.

عبد الله : طلّقت امرأتي، وتشوشت أحوالي.

الولي : طلقت هماً وشهوة. وأحسن الصوفية المجردون، فدع الزواج لغيرك.

عبد الله : حين أفكر في دناءة حالي، وسوء أفعالي، وقبح خصالي، تنحصر نفسي وأقنط من رحمة ربي.

الولي : لاتكن عجولاً، وتذكر أن لكل أمر بدءاً.
عبد الله : تلك هي المشكلة. من أين أبدأ؟ وكيف؟
الولي : تبدأ ببدن عار، وبطن جائع. خرّق ثيابك، واستر بدنك بمرقعة.

(ينهض عبد الله، يتناول من درج رقعة صوفية زرية ومرقعة. يهم بتمزيق ثيابه الفاخرة، ثم يلوح عليه التردد).

الولي : انزع الشك والتردد من قلبك. ولاتنسَ أن أباك أنقى رحم أمك قبل أن تلدك حين تزوجها، وزفها. لم يباشرها، أو يلامسها أربعين ليلة حتى علم أن لم يبقَ في جوفها أثر مما أكلته من قبل، وتناولته فيما عبر من الأيام التي كانت في بيت والدها خشية أن يكون دخل جوفها طعام أو شراب مسّه الحرام. اخرق ثيابك، فما هي إلا قشرة ترميها.

(يبدأ عبد الله بخرق ملابسه، وارتداء المرقعة. فيما يدور الولي حول نفسه، وهو يردد الله..)

عبد الله : **(وقد تسربل بالرقعة)** ثم ماذا أفعل!
الولي : الآن تبدأ المشاق والأهوال. عليك أن تنسلخ من نفسك كما تنسلخ الحية من جلدها.
عبد الله : كيف؟
اللي : أرشدتك إلى البداية، فابدأ.

(يختفي الولي. يتريث عبد الله قليلاً ثم يبدأ بالدوران حول نفسه وهو يردد.. الله.. تكون الحركة بطيئة، ثم تتسارع تدريجياً، فيما تتلاشى الإضاءة).

الجزء الثاني

المصائر

المشهد الأول

(في بيت المفتي. المفتي وعبدو).

عبدو : إنه لايأكل طعامنا. فهل نواصل حمل الطعام إليه؟

المفتي : كيف وجدته؟

عبدو : أعتقد أنه تخبّل. ليس لديه إلا هذه العبارات.. ورأس أمي هذا جنون.. لم تكن زوجته.. أحقاً لم تكن زوجته! وهو مايزال ينتظر فتاويك على المسائل التي طرحها.

المفتي : ألم تقل له إن الحقيقة في الإجماع!

عبدو : وهل يعي ما يقال له!

المفتي : إذن دعه يتخبط في خباله، ولاتحمل له الطعام بعد اليوم.

عبدو : نعم.. فليطوِ سيدي تلك الصفحة وغبارها. يحق لك أن تهنأ بعد أن راقت لك المدينة، وصار الأكابر يمشون ين يديك طالبين رضاك.

المفتي : نعم.. كانت الخلافات تكبّل يدي، وتضغط على مركزي، سنجلو الآن ما لحق بالمنصب من أوشاب، وسيعرف الناس أن سعادتهم في الطاعة، وأن للمفتي جلالاً وسطوة.

عبدو : ألن تصدر الفتوى التي كنت تنوي إصدارها، والتي يتمناها كل أوادم الشام؟

المفتي : أية فتوى؟

عبدو : أن تحرِّم البغاء، وتبيح دم الغواني والعاهرات.

المفتي : آه.. هذه الفتوى! أعتقد أن علينا أن نتريث قليلاً، وأن نتدرج في الشدة. هناك أمر أريد أن تتولاه شخصياً.

عبدو : ليس على الشيخ إلا أن يأمر.

المفتي : أريد أن تتسقط لي أخبار وحركات زوجة النقيب بعد طلاقها. ولاينبغي أن تثير الانتباه، أو يلحظ أحد غرضك.

عبدو : لاتشغل بالك. سأعرف لك ماذا تأكل، ومتى تنام.

(يعلو أذان الغروب).

المفتي : الله أكبر..

عبدو : لا إله إلا الله.. أتريد شيئاً آخر يا سيدي؟ هل أساعدك في الوضوء؟

المفتي : بارك الله فيك.. لا أريد شيئاً.

(يخرج عبدو).

المفتي : أستغفر الله العظيم.. يا رب.. إني أحس في نفسي فتوراً عن الصلاة، ولا أدري لماذا. يا رب.. لاتستكثر نعمتك علي، ولا تجعلني من الجاحدين. بإلهامك دبّرت، وبفضلك نلت ما كنت أصبو إليه. آزرتني حتى ترقيت في المراتب، وحصرت قلوب أعدائي، وحسّادي، فانزاحوا عن دربي. يا رب وأنت الوهّاب الكريم، غمرتني بالنعم، وبوأتني المجد الذي تشوقت له نفسي. ولم يبق أمامي إلا خطوات يسيرة، وأصير مفتي السلطنة في مركزها وعاصمتها. يا رب نوّلتني هذا كله، فلمَ تحرمني الرضا؟ هل أضلّني إبليس..؟ أحس فراغاً في سريرتي، كدراً في قلبي. أكانت تلك المرأة أحبولة إبليس، وأداته؟ لماذا لايغمرني الرضا، ويفيض في جوانحي العرفان! إني فاتر الروح والجسد. لا أحس للنصر بهجة، ولا للمجد مذاقاً. هل تخلّصتُ من أعدائي، كي يأتيني عدو من نفسي! علقت صورتها في خيالي، وعلق كلامها في ذاكرتي. يا لها

من امرأة بين النساء.. يارب.. قوني على الصلاة، وانزع هذا الكدر من قلبي، وطهّر روحي من حيل إبليس وألاعيبه. يا رب.. نويت الوضوء، ونويت الصلاة **(يعلو صوته آمراً)** هاتوا الطشت والإبريق. يا رب.. إني ألوذ بك من فتوري.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثاني

(في بيت وردة. وردة ومؤمنة).

وردة : **(محرجة وقلقة)** نوّرت البيت، أي والله.. أضاء البيت نور. غسلت الملاية، وبخرتها بالمسك. لو أرسلت الخادمة.. هذا شرف لا أستحقه.. أن تأتي بمقامك، وشرفك إلى بيتي. **(تناول وردة الملاية المطوية والملفوفة بعناية، وتقدمها لمؤمنة).**

مؤمنة : لم أزرك كي أسترد الملاية.

وردة : **(يزداد حرجها)** طيب.. تفضلي. **(تحاول مؤمنة أن تجلس على إحدى الطنافس المصفوفة في المكان، فتأخذ وردة بيدها)** لا.. لا.. الجلسة هنا أكثر راحة. **(تجلسان، تتعمد وردة الجلوس في مكان أوطأ، بينما تتفرس مؤمنة في المكان بعينين لاهبتين)** هل أنت مرتاحة؟

مؤمنة : لا تشغلي بالك.. فأنا مرتاحة. إن بيتك لطيف.

وردة : هو على قدّ الحال. رتّبته، وزيّنته بمقدار ما أستطيع.

مؤمنة : إنه كالعش.. ملوّن ودافئ.

وردة : هذا من ذوقك. **(تصفق بيديها عدة مرات. تظهر الخادمة بسمة)** أين الضيافة يا بسمة؟ هاتي ما يليق.. ولا تسوّدي وجهي أمام ست الأشراف.

مؤمنة : لا أريد شيئاً.

وردة : هل تكسرين خاطري؟ يا الله يا بسمة.. **(تخرج بسمة. يرين**

صمت، ووردة تتحاشى أن تلتقي عيناها بعيني مؤمنة) إذا أردت أن تسألي.. لا أدري.. إني مرتبكة. أتريدين أن تسألي.. عني وعن.. السيد النقيب؟.

مؤمنة : لن أسألكِ عن علاقتك بالسيد النقيب.

وردة : على كلٍّ.. لقد انتهت. كانت شيئاً عابراً مما يفعله كل الرجال. وأنا واثقة أن منزلتك في نفسه لم تتزحزح، ولو مقدار شعرة.

مؤمنة : هذا لايعنيني. أنا الآن طالق، وما بيني وبين عبد الله انتهى إلى الأبد.

وردة : طالق..! وهل كان ذلك بسببي! أماتني الله، وشواني بناره إن كنت السبب.

مؤمنة : لا.. لم تكوني السبب. لقد تهيأت الفرصة لكي يحدث ما ينبغي أن يحدث. ليس لدي ماألومك عليه، بل وأشعر بالامتنان لك.

وردة : ولم الامتنان!

مؤمنة : ربما لأنك هيأت الفرصة لكي يحدث ما حدث.

وردة : أكنتِ تكرهينه؟

مؤمنة : لا.. لا أكرهه.

وردة : إن عبد الله رجل يُفتقد.

مؤمنة : هل تفتقدينه؟

وردة : وما الفائدة؟ تعلمت ألا أتحسر. حين تنتهي الحكاية أدير ظهري، وأتابع طريقي. مالنا.. لا مؤاخذة، حتى الآن لم أعرف سبب تشريفك لي.

مؤمنة : جئت أرجو أن تأخذي بيدي. أريد أن أنضم إليك، وأن أغدو واحدة من غواني هذا البلد.

(تهب وردة واقفة، وكأنما لسعها عقرب، تحملق بمؤمنة مبهوتة

وغاضبة. تبادلها مؤمنة نظرتها دون أن تنكسر عيناها).

وردة : ماذا قلت؟

مؤمنة : أريد أن أصير غانية مثلك.

وردة : **(تنفجر)** أجئت تتفقّسين علي! أجئت كي تزدريني، وتحطي من شأني! هل كُتب علي أن يلاحقني يتحكم بالإهانة طوال عمري! من درّبني، وأسلكني هذا الدرب! أتذكرين.. لا.. لا تذكرين، أو لعلك لا تريدين أن تذكري. ألم أكن خادمة لديكم! ألم يكن الشيخ الجليل.. أبوكِ هو الذي علّمني طبقات الفسق ومراتبه قبل أن أحيض، ثم تناوب علي الابن مع الأب، ثم ألقوا بي في الشارع لأن العرق دساس، ولأن حركاتي تنم عن فسق مبكر! طويت صدري على سري. ذقت المرارة والإهانة والشقاء ولم أجرؤ على البوح بسري. وها أنت بعد هذه السنوات، تأتين بجلالك لكي تنكأي الجرح القديم، وتبصقي عليّ في بيتي.

مؤمنة : **(تنهض بدورها مذهولة، وكأنها تحدّث نفسها)** وإذن.. أنت واحدة منهن. من ذلك السرب الطويل الذي تعاقب على حضن الوالد. والشيخ الجليل لا تشبع طبيعته، ولا تستكين.

(تدخل بسمة حاملة صينية كبيرة عليها قهوة ومكسرات وفواكه مجففة).

بسمة : أين أضع الصينية يا معلمتي؟

وردة : ضعيها أنى شئت.

(تلاحظ بسمة الجو المتوتر، تضع الصينية، وتقف منتظرة).

وردة : **(بغضب)** ماذا تنتظرين؟ اخرجي..

(تخرج بسمة، تتحاشى المرأتان تبادل النظرات ويرين على الجو توتر مثقل بالغضب والدهشة).

مؤمنة : وخزتني الصدفة. ولكن لا شيء يحكى عن ذلك البيت

المكلّس بالشهوات والرياء، يمكن أن يدهشني.

وردة : إذن، أنت تعرفين قصتي!

مؤمنة : لعلي لم أسمع عنك بالذات. ولكن أعرف قصصاً كثيرة مما كان يدور في ظلمات ذلك البيت. صدقيني.. لم يخطر ببالي أن أهينك، أو أن أمسَّ مواجعك.

وردة : لا تحاولي أن تمكري بي. وقولي على بساط أحمدي ماذا تخفين وراء زيارتك؟

مؤمنة : قلت لك على بساط أحمدي.. أريد أن تساعديني كي أصير غانية.

وردة : أتحاولين مكايدة عبد الله..؟! أعوذ بالله من كيد الكبار.

مؤمنة : ينبغي أن تصدقيني.. أنا لا أعرف اللف والدوران، ولم أتعود على تدبير المكائد. إني أعني ما أقول، وليس هناك ما يدفعني إلا رغبتي وهواي.

وردة : حلّفتك بالله.. هل أنت جادة!

مؤمنة : كل الجد يا وردة.

وردة : **(ترفع عقيرتها، وتصفق بيديها)** الله.. الله.. تعالوا، واسمعوا. ست الأشراف تريد أن تصير غانية. إنها تحسدنا على هنائنا، وتريد أن تنازعنا فيه. وهل تظنين بسلامتك أن الكار بيت داشر، ومفتوح لكل من لها فرج ونهدان!

مؤمنة : لهذا طلبت مساعدتك.

وردة : ولماذا أساعدك؟

مؤمنة : لأني أتوسّم فيك السماحة. ولأني لن أضيّع لك تعباً. أعدك يا وردة أن أكون رفيقة لاتجحد المعروف.

وردة : اسمعي يا بنت الحلال.. هذا الكار لاتدخله الواحدة منا، إلا بالاضطرار والمطاحنة والبهدلة. أما أن تأتي امرأة تملك كل شيء، وليس لديها أي دافع إلا المزاج والشهونة، فإنها تهيننا

جميعاً، وتغبن العذابات التي تحملناها. كان يمكن أن أخرج من الباب، وأصيح في كل الطرقات.. ست الأشراف تطلب الدخول في سلك الشراميط. وكان يمكن أن أثأر بالشماتة والفضيحة لحياتي كلها. تصوري.. هل خطر ببالي أن الفرصة ستأتي، وسأرى بعيني ابنة ذلك الرجل الذي رماني إلى هذا الكار، تتوسل إلي كي تدخل فيه! حقاً.. إن الدنيا لاتخلو من العدل. لا يا بنت الحلال.. رغم كل شيء، لايطاوعني قلبي على الانتقام. خذي ملايتك، وانزعي وسوسة الشيطان من قلبك.

مؤمنة : يمكنك أن تشمتي، أو تثأري، وهذا أقل من حقك. ولكن لارجوع عن القرار. توسمت فيك وداً خفياً، فلا تخيبي رجائي. إذا لم تقبلي مساعدتي، فسألجأ إلى معلمة أخرى.

وردة : ما أعجبك يا امرأة.. من أين يأتيك هذا التصميم كله!

مؤمنة : هذا أمر يصعب تفسيره، ويطول الخوض فيه. يكفي أن تعلمي أني شديدة التصميم، وأني سأنفذ ما صممت عليه.

وردة : يا بنت الحلال.. ما حدث بينك وبين عبد الله يمكن إصلاحه.

مؤمنة : أنا طلقت عبد الله، ولا شأن له بهذا الأمر.

وردة : تمهلي بعض الوقت.. ومع الوقت قد تستردين بصيرتك. إنك لاتعلمين في أي موحلة ترمين نفسك. أتظنين أن حياة الغواني رغد ونعيم! إنها حياة مغمّسة بالقهر والعفن والخوف. نخاف من يحمينا، ونخاف من يشتهينا، ونخاف غدنا. ما الذي تظنين أنك فاعلة! وأنت ما أنت.. لك من جمالك ومركزك حصانة، وألف من يتمنى قربك. إذا لم يكن ما تطلبينه نزوة عابرة، فإنه جنون ما بعده جنون.

مؤمنة : ما أريده ليس نزوة. أرجوك أن توفري نصائحك، لأني

عجمتها، وعجمت ما هو أكثر منها قبل أن أعزم على المجيء إليك.

وردة : لا مجال لإقناعك!

مؤمنة : لا.. لامجال. تدبرت الأمر، وقررت.

وردة : وتريدين أن أكون المرشدة والمعلمة!

مؤمنة : إذا رغبت.

وردة : ستكونين بنتي، وحقي عليك الخضوع والطاعة والولاء. يا الله.! ولكن من يصدق.. أن يأتي يوم، وأصبح سيدة لستّ الأشراف! وأن تصير ابنة ذلك الشيخ الجليل بنتي في الكار! هل أنا أحلم..؟

مؤمنة : لا.. إنك لا تحلمين يا معلمتي.

وردة : **(وهي تصفق بيديها)** طيب.. دعينا نبدأ.

مؤمنة : فلنبدأ بالاسم يا معلمتي.

وردة : نعم.. سنختار لك اسماً يبرق كالمصباح **(تدخل بسمة)** نادي البنات يا بسمة، وهاتي الشربات.

مؤمنة : هل تسمينني نجمة؟

وردة : هو اسم جميل. دعيني أفكر.. إني أبحث عن اسم يبرق في حروفه ولفظه. ياقوتة.. لا.. اللفظ كامد. ألماسة..نعم، هذا يشع. ما رأيك؟ هل أعجبك؟

مؤمنة : نعم.. إنه يشعّ. ولمَ لا؟ صار اسمي ألماسة.

(تدخل بسمة، ووراءها ثلاث من بنات الهوى يتدافعن).

وردة : يا بنات.. لدينا تلبيسة. هذه الفتاة اسمها ألماسة. تريد أن تدخل الكار، وأن تتعلم فنونه. لن نسأل عن حكايتها، ولا يهمنا أن ننبش في ماضيها. إنها ألماسة، وأعتقد أنها ستكون بنتاً طيبة وبارعة. سنشرب شرباتها، ونحتفل بتلبيستها. هاتي ثوب الفتنة يا بسمة.

(بسمة تبدو غائبة في ذهولها ودهشتها).

وردة : مالكِ! هل أصابك الصمم!

بسمة : **(وكأنها تصحو من كابوس)** نعم.. نعم..

وردة : هاتي ثوب الفتنة.

(تحيط البنات بألماسة، ويبدأن بنزع ثيابها على إيقاع غنائهن).

البنات : **(يغنين ووردة تقود الغناء وحركاتهن)**

اسم الله.. اسم الله يا زينة يـا وردة جـوة الجنـينة
زهر القرنفل يا عروسة والـورد خـيّـم عـلـينا
قومي العبي بحبل اللولو وافردي شعرك على طولو
خليهن يحكو ويقولو آه يا حلاوة يا عسلية.
قومي العبي بعرق الألماس واللولو حارس هالبزاز
الله يجيرك من كلام الناس آه يا حلاوة يا عسلية

(تدخل بسمة حاملة ثوب الفتنة وهو ثوب يميّز وردة، وترتديه للإغراء. تغدو ألماسة شبه عارية. لم يبق عليها إلا بعض الملابس الداخلية. أفرد البنات شعرها، ومشّطنه، فيما انهمكت وردة بتزويقها. حين تصبح جاهزة، يلبسنها مع الغناء والرقص ثوب الفتنة).

البنات:

عـالـدلالـي.. عـالـدلالي هـالـنـقـلـة نـقـلـة غـزالي
لبست شلحة وشلحت شلحة وتحت الشلحة شي ضوالي.
عــالدلالي.. عــالدلالي هـالـنـقـلـة نـقـلـة غـزالي
لبست بدلة وشلحت بدلة تحت البدلة شي ضوالي.

(تتم التلبيسة)

وردة : دعيني أرى.. تفتّلي قليلاً.. الله.. خزيت العين. بدرٌ واكتمل. انظري إلى نفسك بالمرأة يا ألماسة.

(تنظر ألماسة إلى نفسها بالمرآة نظرة غريبة ومسحورة. تقترب منها وردة).

وردة : هل ألمح ندماً في عينيك يا ألماسة!

ألماسة : لا.. لاندم. هذا كالسحر. إني مبهورة.

وردة : هاتي كؤوساً وشراباً حقيقياً يا بسمة. بالخمر سنساعدها على تخطي العتبة. وبالخمر سنبارك الاسم والصحبة. وبالخمر سنسقي البهجة والموجة. يا الله يا بنات..

يا قضامة مغبرة ويا قضامة ناعمة شـوف عـيني شـوف

(تبدأ بالرقص، والبنات يرافقنها بالغناء والتصفيق. بعد عدة دورات تسحب ألماسة إلى الرقص لتحل محلها. بعد تردد قليل، تبدا ألماسة بالرقص بينما يشتد التصفيق. ترافقها وردة وكأنها تعلمها كيف تجعل أداءها أفضل).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث

(عباس. يدخل العفصة حليق الشوارب، ناعم الوجه، يتعمّد التخنث بحركاته وكلامه).

عباس : **(يرمقه باستغراب ونفور)** قاتلك الله.. ماذا فعلت بنفسك؟

العفصة : فكرت أن أقدم لك هدية يا نور عيني.

عباس : أي عفريت ركبك!

العفصة : لم يركبني إلا هواك.

عباس : وهل قلبت سحنتك من أجل هواي؟

العفصة : لا تجعلني أبكي.. أردت أن أحلو في عينيك. لاحظت أن ولعك يخف، وأنك تبتعد عني، فأصابني فزع رهيب. وفكرت.. كيف أرضي حبيبي.. كيف أرضيه..؟ وخطر لي أن اقدم لك أثمن ما لديّ وآخر ما يميّزني في عيون الناس. **(يخرج من جيبه منديلاً حريرياً معقوداً بأناقة، ويقدمه لعباس).** تفضل يا أبا الفهد.. إنها هديتي لك.

عباس : ما هذا؟

العفصة : افتحها، وسترى ما فيها.

عباس : **(يفك ربطة المنديل، فيظهر ما فيها)** أهي شواربك!

العفصة : نعم..هي شواربي، أهبها لك. ويمكنك أن تعلن في طول المدينة وعرضها أن شوارب العفصة ملكي، وأن العفصة كله ملكي.

عباس : أعوذ بالله.. ما الذي دهاك يا بني آدم!

العفصة : أخاف أن تهجرني. بعد أن كشفت روحي، وأذقتني مسرّة كنت أبحث عنها طوال عمري، لا أتحمل أن تبتعد عني. إنك لاتعلم ماذا فعلت بي! لقد غيّرتني، وقلبتني من أصلي.

عباس : ألم تكن تريد السترة، وتخاف البهدلة!

العفصة : لم أكن أعرف سطوة الحب وجنونه. السترة.! وهل يستطيع العاشق أن يستتر! لم أعد أبالي بشيء. إن جفوة منك أشد علي من ضياع اسمي وكرامتي ومكاني بين الناس. لايهمني أحد.. لايهمني إلا أنت. وأريد أن ترغبني، وأن تجدني حلواً وطرياً بين يديك. انظر.. نتفت شعري كله. ساقاي ويداي وكل شيء. ولو شئت أن تقطع لحمي، فإني مباح لك.

عباس : أعوذ بالله.. وهل تعتقد أنك ترضيني إذا تخنثت!

العفصة : وما الذي يرضيك؟ ألا تفضّلني ناعماً وطريّاً؟

عباس : إنك تثير نفوري. ما أنت الآن إلا علق يتدرب على المجون.

العفصة : إني علق لك. وأردت أن تعرف أني تحوّلت، وأن لدي الشجاعة كي أعلن تحوّلي، وأواجه الناس به. قل لي كيف تريدني؟

عباس : أردت أن تظل رجلاً إلى جانبي وبين يدي.

العفصة : لايهمني ما أكون. ولكني لك وبين يديك.

عباس : مع هذا التخنث السافر، أخجل أن تكون إلى جانبي. وأخجل أن يعرف الناس أن لي صلة بك. بهذه الهيئة، ما أنت إلا سمسم آخر.

العفصة : لاتقتلني يا أبا الفهد. ما فعلت هذا إلا من أجلك. وأنت تعرف أن ما فعلته باهظ التكاليف علي. إنه في بلدنا كالموت أو أسوأ من الموت. ولكنك تتظاهر بالغضب والنفور، لأنك تبحث عن حجة كي تقطع ما بيننا **(يغص وينخرط في**

البكاء) إني لا أتحمل هجرانك.. إني لا أتحمل أن ترميني بعد أن غيّرت تكويني. غدوت كالماء في صفائه ووضوحه. كيفما نظرت إلي، ستجدني واحداً. هيئتي هي سريرتي، وسريرتي هي هيئتي. ألم تقل إنك تنفر ممن له مظهر ومخبر! وما فعلته هو أني أظهرت مخبري، ولم يبق لدي ما أكتمه أو أخفيه. أردت أن أقوي أسباب الود بيني وبينك، وأن أعترف دون مداورة أو تستر أني أعشقك. هذا العشق هو الذي جرأني على نفسي وعلى الناس، وهو الذي يمدّني بالشجاعة والحياة.

عباس : ما هذا الهبل الذي تسكبه في أذني؟ إنك تتكلم مثل قحبة قرّحها الغرام والحرمان.

العفصة : أتكلم كما يتكلم العاشق.

عباس : وتتحدث عن العشق وأكل الهوى..! لايكون بين الرجال عشق وغرام.

العفصة : ماذا كان بيننا إذن!

عباس : أتريد الصراحة؟

العفصة : نعم.. حان وقت الصراحة ولو كان فيها مقتلي.

عباس : ما كان بيننا هو شهوة تزول مع قضاء الوطر. وكان يلذُّ لي أن أعلو رجلاً محسوباً على الزكرتيّة، وأن أرى قامته تنكسر وتتصاغر بين فخذي. أما الآن، فأي لذة سأجنيها من اعتلاء مخنث رقيع!

العفصة : أتعلم يا أبا الفهد.. إن مواجهة زكرتية البلد مجتمعين لايحتاج إلى الشجاعة التي احتجتها كي أفعل بنفسي ما فعلت.

عباس : دعنا من المنفخة.. أهي شجاعة أن تمسخ نفسك، وتصبح عرّة لمن يعاشرك أو يقترب منك؟

العفصة : تخليت عن كل ما يخصني، لكي أخصك وحدك، ولكي يعرف الجميع أني منذور لك. فهل يكون هذا التفاني عرّة تخجل منها، وتتحاشاها! لو كنت تبادلني العشق، لقدّرت ما فعلت من أجلك.

عباس : كلما تحدثت عن العشق، سقطت من عيني أكثر.

العفصة : سقطت من عينك لأنك تريد أن تقطع ما بيننا. لاتظن أني لاأعرف ما يجري. منذ أن طلبت منك قحبة الحسب والنسب ألماسة أن تكون حاميها، بدأت تبتعد عني وتظهر الفتور لي. لايزعجني أن تكون حاميها. وسأعمل ين يديك خادماً وسنداً، ولكن لا تقطع ما بيننا. لا أعرف ماذا أفعل بحياتي إن تقطّع ما بيننا.

عباس : أشعر بالنفور، ولم يعد يلائم سمعتي أن تكون بيننا صلة.

العفصة : أرجوك تمهل..

عباس : هذا قراري، ولا تذل نفسك أكثر.

العفصة : أكنتُ مخدوعاً يا عباس! ألم يكن لديك إلا هذا المظهر الذي تتشبث به، وكأنه وجودك وعلامتك! لن أذل نفسي أكثر. ولكن لدي رغبة صغيرة أود أن تلبيها قبل أن نفترق.

عباس : وما رغبتك؟

العفصة : أن تنازلني في ليّ الذراع.

عباس : أتريد أن تمتحن قوة ذراعي!

العفصة : أعرف قوة ذراعك، ولكن لم أعد أعرف هل بقيت في ذراعي قوة.

عباس : وفّر على نفسك هذه المهانة.

العفصة : هذه المهانة هي رغبتي الأخيرة، فلا تخذلني.

عباس : سأسحقك.

العفصة : سحقت ما هو أهم من ذراعي، ولن يزيدني ألماً أن تسحق

ذراعي. تعال..

(يجلسان حول طاولة. تتماسك قبضتاهما، ويبدأ كل منهما في السد كي يلوي ذراع الآخر. يستمران فترة طويلة ولا يفلح عباس في ليّ ذراع العفصة. تحمرّ أوداجه، ويبدو الغضب على وجهه).

العفصة : هل نواصل؟

عباس : **(محتقناً)** لا.. هذا يكفي.

العفصة : **(قبل أن يرخي قبضة عباس، ينحني بلطف، ويقبّلها)** الآن.. وداعاً يا عباس.

عباس : **(وهو يتناول المنديل الذي يحتوي على شوارب العفصة)** خذ هديتك قبل أن تخرج.

العفصة : هي لك ولايهمني ما تفعله بها.

(يخرج العفصة).

عباس : ماذا دهاني؟ من أين جاءته هذه القوة؟ كاد هذا المخنث أن يلوي ساعدي. لعنة الله عليه. لقد أفسد مزاجي.

(يرمي الشوارب على الأرض، ثم يدوسها بغضب. وكما لو كان الغضب يتصاعد في صدره، فإن قدمه تدوس الشوارب بحركة متصاعدة العنف).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع

(في بيت عبد الله. حلقة ذكر في أوج احتدامها. وعبد الله في وسط الحلقة يدور ويترنح وهو يردد.. الله.. الله.. عيناه زائغتان، وملامحه تنم عن الغياب. وبعد قليل يسقط على الأرض، ويبدأ جسده اختلاجات لا إرادية ومتلاحقة. حين يهدأ جسده ينسحب الحضور انسحاباً خفياً. يظل عبد الله وحيداً، راقداً على الأرض. يدخل الولي).

الولي : أين بلغت؟

عبد الله : **(يرفع رأسه ويتلجلج صوته)** لاشيء.. وهن في الجسد، وغبش في العين.

الولي : إنك تبدأ الطريق. والطريق طويلة.

عبد الله : **(يعتدل في جلسته)** أشواقي محرقة، والوجد يملأ جوانحي. أحياناً، أحس أني أقترب.. أن بارقة ستسطع، وأن النور سيغشاني. ثم يغرق كل شيء في الظلام، وأعود إلى فقري.

الولي : لا نصل إلى النور إلا بالسوانح النورية.

عبد الله : وكيف السبيل إلى نيل هذه السوانح!

الولي : البعض ينفق السنوات الطوال، ويظل لا يبرح مكانه.

عبد الله : لاتضعف همتي. تحوَّل وجدي إلى حصر يغمُّ صدري. لا آكل إلا بُلعة من الطعام. ولي في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة.

الولي : أتمنّن الحق يا عبد الله؟

عبد الله : معاذ الله يا سيدي.. ولكن أشعر أن بيني وبينه حجاباً سميكاً، لايكاد يرقّ. حجاباً يوجع قلبي، ويملأني يأساً من نفسي.

الولي : نفسك هي حجابك، والنفس هي أصعب ما يعالجه المريد.

عبد الله : دعوته دعاء من لايرجو سواه. وناديته بالاستغاثة، فلم يلتفت إلى صدق دعائي ويأسي من نفسي.

الولي : دعاء السجين في نفسه لايخلو من الأنانية والشوائب.

عبد الله : أما من رسالة أو كتاب؟

الولي : لا خير في الكتب. من جاع جوع القوم وسهر سهرهم، رأى ما رأوه.

عبد الله : أما من نصيحة؟

الولي : أهمل بدنك حتى يتراكم عليه الوسخ، وعفّر وجهك ومرقعتك حتى يزدريك من يراك. لا تقصَّ ظفراً ولا شعراً، واترك القمل، يتناثر على وجهك وثيابك. ثم ادخل إلى حيّك الذي تُعظّم فيه حتى ينظر إليك أصحابك، ويسقط باللوم جاهك، ويلاحقك الصبية بالتقريع والسخرية.

عبد الله : ألا يوجد سبيل آخر؟

الولي : ابتدئ بهذا قبل كل شيء حتى تُسقط جاهك، وتُذل نفسك، ثم عد إلى معتزلك خفيفاً، لاتملك شيئاً ولايملكك شيء. وكرّر النداء..

عبد الله : وهل يغيثني لو فعلت؟

الولي : حين تترك نفسك وراءك، تجده أمامك وبين عينيك. فهل تفعل؟

عبد الله : نعم.. سأفعل. لأن الوجد يهلكني.

الولي : إن تعظيم الناس يصرف عنه يا عبد الله.. وإن الدنيا لقمة

مسمومة. ومن يحب لا يزعجه لوم اللائمين. ولاتَنسَ أن هناك عشاقاً سبقوك، كانوا يبولون الدم إذا ذكر الله عز وجل. وسعيد من يرقى المقامات، ويصل إليه، فيفنى في غبطته.

(يختفي الولي).

عبد الله : ما أعظم أشواقي. اسقوني يا ثقاتي. قَطِّروه واسقوني. أسكروني حتى أفقد بصر عيني، وأبصر بعيني ذاتي. الله.. الله.. الله.. الله...

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس

(في بيت المفتي. الشيخ محمد رسمي الخزار وهو والد مؤمنة التي صارت ألماسة. المفتي. ألماسة).

المفتي : زيارتك مشرفة وكريمة يا شيخ محمد. وإن كنا نودّ لو أن دواعيها مختلفة. هذه هي ابنتك.. أرجو الله أن تهديها إلى الصواب، وأن تسترجعها للعيش في بيتها وفي كنف أهلها.

الشيخ محمد : مشكور سعيك وترحيبك يا شيخ قاسم.

ألماسة : ألا تتعب من المكر والترتيب يا مفتينا!

المفتي : لا يلام فاعل الخير يا مؤمنة.

ألماسة : اسمي ألماسة. وأمرك مع الخير يحيّرني مكره والتواؤه.

الشيخ محمد : حقاً.. لقد تجاوزتِ في النشوز كل حد. ليس لك كلام وأنا موجود في الحضرة. هل تتكرم يا شيخ قاسم، وتتركنا برهة على انفراد!

المفتي : طبعاً.. طبعاً.. البيت لك. وأوصيك يا ابنتي أن توفّي أباك حقه من الطاعة والتوقير.

(ينسحب المفتي، ويترك الشيخ محمد مع ابنته).

ألماسة : هل وسَّطت المفتي كي تلتقي بي!

الشيخ محمد : لم يكن هناك سبيل آخر.

ألماسة : لماذا لم تطلب مني أن أوافيك في البيت!

الشيخ محمد : أنت تأتين إلى البيت! ألا تدركين أنك صرت عاراً يلطخ

البيت وأهله! إني أشعر بالامتنان لأن المفتي رضي أن تدخلي بيته. ما الذي حلَّ بك! كيف سيطر عليك إبليس، وساقك كالعمياء إلى الرذيلة والفاحشة؟ أين أواري وجهي، وكيف نواجه الناس! إن فاحشتك لايكاد يصدقها الخيال. غدونا سيرة المدينة ومضغة في أفواه الرعاع.

ألماسة : ما أفعله لايخص أحداً سواي.

الشيخ محمد : وترفعين عينيك في وجهي! من أين تعلمت هذا الاستهتار! في بلدنا سمعة الحرمة تخصُّ أهلها قبل أن تخصها. إنها بلاء على الأب والأخ والزوج والقريب. أهذه هي التربية التي أنشأتك عليها؟ أهذا هو التعليم الذي ميّزتك به عن بنات الآخرين؟ ماذا أصابك؟ لا يمكن أن تفعلي هذا الأمر الفظيع إلا إذا كنت مسكونة أو مجنونة!

ألماسة : نعم أيها الرجل التقي.. إني مسكونة. مسكونة بالأشباح التي كانت تتخفى في القمة. مسكونة برائحة الشهوة التي كانت تملأ أعطاف البيت. كنت أميز الروائح التي تعرفتها طفلة، والتي أدمنتها بالغة. نعم.. مسكونة بالهمس المكتوم والفضائح المخنوقة. أتحدثني أيها الرجل التقي عن التربية! هل تعرف ما هي النار التي وشمت جسدي، وأنضجته قبل أوانه! إنها نار شهوتك التي لاتفتر، ومعها شهوة بكرك الذي تفاخر به. إنها نار الحرقة في دموع أمي، وصمتها الموجوع. إنها نار عينيك اللتين كانتا تلحقان بي في الدار وبيت الخلاء ومحل النوم والخلوة.

الشيخ محمد : اخرسي.. قطع الله لسانك. ما أنت ابنتي التي أعرفها. إن إبليس هو الذي يسكنك، ويتكلم من فمك.

ألماسة : وهل كان إبليس هو الذي يعلم الخادمات طبقات ومراتب

الفجور، ويفضّهن قبل البلوغ، ثم يلقي العبء على الأم التي تذوي كي تكتم الفضيحة، وتغطيها! أتعلم أن الغانية التي شغلت الشام، وسَبت لُبّ نقيب الأشراف كانت خادمة في بيتنا، وكنت معلمها الأول في فنون اللذة والفجور!

الشيخ محمد : **(يصفعها بعنف وهو يرتعش انفعالاً وغضباً)** اخرسي.. لعنة الله عليك. هل فقدت كل أدب؟ هل فقدت كل حياء؟

ألماسة : لا تلم إلا نفسك يا أبي. أنت من مزّق حيائي، وأنت من زرع الغواية في نفسي. نعم لقّنتني كلمات، لكن ما قيمة الكلمات وأنا أبصر كيف تمارسها، وكيف تختلس النشوة من أضدادها؟ حفّظتني القرآن، وعلّمتني في الوقت نفسه كيف يكون ترتيل القرآن ستاراً للتهتك والفسوق. إني ابنتك وأهوائي ثمرتك، وما أفعله الآن تخمَّر، ونضج بتلك الرائحة الحريفة التي كانت تنبعث من ظلمات البيت، وتنتشر في أرجائه.

الشيخ محمد : ملعونة أنت حتى يوم الدين. أتساوين نفسك بالرجال..؟ لولا حرمة المرحومة لقلت إنك لست من لحمي ودمي.

ألماسة : إني من لحمك ودمك يا أبي. ولم أذكر ما ذكرت كي ألومك أو أدينك. أردت أن تكون مواجهتنا في الضوء، وأن يكون حوارنا صريحاً لايموّهه نفاق أو رياء. علمتني كيف أتلمس جسدي وكيف أكتشف ينابيعه. ورغم أنك تستنكر ذلك، فإني أعتبر ما تعلمته فضلاً كبيراً وكنزاً ثميناً.

الشيخ محمد : كأنك تتباهين بالنشوز والدّعارة! اسمعي.. إما أن تتوبي وتجنبي شيبتي هذا العار، وإما أن تهلكي.

ألماسة : لا تهددني يا أبي.

الشيخ : إني أخيّرك، ولولا رقة الشيخوخة لما أمهلتك حتى الآن.

ألماسة : لا تَنسَ يا أبي أن الفضائح ملفوفة بأغشية رقيقة. وإن أصابني

مكروه، فإن وردة ستمزّق الأغشية، وستعلن الفضيحة في كل المدينة، سيكون عليك أيها الرجل التقي أن تواجه بدلاً من البلاء بلاءات كثيرة.

الشيخ محمد : أهذا هو جوابك لأبيك؟

ألماسة : تهديدك هو الذي أملى جوابي. أبي.. عشت هذا العمر الطويل مستوراً. وكنت بارعاً في تغطية أفعالك، ومحو الشبهات حولك. وأعتقد أنك تستطيع رتق نشوزي، والحفاظ على سمعتك العاطرة بعيداً عني. وفي النهاية، ألا نعرف أن أحداً لايحمل وزر الآخر، وأن لكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت؟

الشيخ محمد : لاشك أن أمك تئن في قبرها.

ألماسة : لا تذكر أمي. من جعلها تئن طوال حياتها، لايحق له الآن أن يتباكى عليها.

الشيخ محمد : متى ربّيت في صدرك هذا الحقد وهذا الجحود؟ أتريدين عقابي! أتريدين عقابنا جميعاً، لأن زوجك غرّته الجهالة، وأخطأ في حقك!

ألماسة : لا أحاول الانتقام يا أبي. وزوجي لم يخطئ في حقي.

الشيخ محمد : إذن أنت ضحية عمل أو رصد. هناك من أعمى بصيرتك. عودي إلى رشدك يا ابنتي، واستري شيبة أبيك. سنقول إن مساً أصابك. ومع الأدعية والنذور، سنشفيك من هذا المس، ونطوي القصة في ذاكرة الناس.

ألماسة : هذا مصيري يا أبي، وسيصيبني المسُّ لو تنكرت لمصيري.

الشيخ محمد : أعوذ بالله.. هذه مكابرة إبليس.

ألماسة : ألم يكن إبليس يساكننا! ألم يرافقنا في الطفولة والصبا!

الشيخ محمد : لا أتعرف فيك على ابنتي. إنك بنت زنى. لعنة الله عليك.. وإني أتبرأ منك أمام الله. لا ابنة لي ولم يعد لك أب.

وسنرى إلى أي منقلب تنقلبين.

(يصق عليها، ويخرج).

ألماسة : **(وهي تمسح وجهها)** أيها الشيخ المسكين. هي بذرتك التي أينعت، وبرزت للنور. فعلامَ الغضب!

(يدخل المفتي منفعلاً).

المفتي : هل أغضبتِ أباكِ؟

ألماسة : لم نستطع تحاشي الغضب. لماذا دبّرت هذا اللقاء؟

المفتي : لأن أباك أراده، ولأننا جميعاً نحس بالصدمة والهول. كيف يمكن أن تنزلقي إلى هذا الحضيض! إنك تذهلينني.

ألماسة : ولمَ الذهول! ألم تكن تعرف!

المفتي : أتريدين أن تحمليني جريرة هذا العمل الفظيع؟

ألماسة : لا أريد أن أحملك شيئاً. ولكن أعتقد أني شرحت لك الكثير عن غواية الهاوية.

المفتي : قلت كلاماً لم أفهمه جيداً. وأنا لا أفهمك الآن. إني لا أفهمك أيتها المرأة، ولا أعرف كيف تفكرين، وكيف تسلكين!

ألماسة : ليس ضرورياً أن تتعب نفسك في فهمي.

المفتي : بل أحتاج إلى فهمك. إنك..

ألماسة : **(بعد أن استدرك نفسه وتوقف)** إني؟

المفتي : **(محرجاً)** لا أدري.. إذا كان تدبيري هو الذي رماك إلى هذا المصير، فإني مستعد لإصلاحه. لا أريد أن ينوء ضميري تحت وزر ثقيل.

ألماسة : وكيف ترى السبيل إلى إصلاح ما حدث!

المفتي : إني أعرض عليك الزواج.

ألماسة : أتتزوج عاهرة يا شيخ قاسم!

المفتي : لاتسيئي إلى نفسك.. إن معدنك أصيل. وما حدث هفوة

يمكن أن نتغاضى عنها.

ألماسة : إنه عرض كريم، ولكن لا أعتقد أني أستحقه.

المفتي : إنك أفضل من يستحقه. سأنسى كل شيء، سأجعلك المدلّلة بين نسائي.

ألماسة : وهل تفعل هذا كله كي تريح ضميرك!

المفتي : بل.. ولمَ لا.. أريد أن يكون ضميري مستريحاً.

ألماسة : لا تحمل ضميرك أي وزر. كنت أنتظر أي صدفة كي أتبع غوايتي. وما أفعله هو خياري وحدي.

المفتي : ومع هذا.. ما زلت أعرض عليك الزواج.

ألماسة : لم أطلق زوجي كي أتزوج قرينه.

المفتي : أترفضين عرضي!

ألماسة : مقامي لايتيح لي أن أستحقه أو أقبله.

المفتي : ما أنت أيتها المرأة! ماذا تريدين، وعمَّ تبحثين؟

ألماسة : إني أبحث عن شيء لايمكن أن يفهمه رجل مطمئن النفس مثلك.

المفتي : ومن قال إني مطمئن النفس؟

ألماسة : ألم تقل لي إن دخيلتك صافية، وليس فيها ما تخفيه، أو ما تخجل منه!

المفتي : ربما قلت. لا.. لم أعد مطمئن النفس. أخبرني ماذا تريدين، وعمَّ تبحثين؟

ألماسة : سيبدو ذلك غامضاً، ويصعب شرحه. حيث أتأرجح على الحافة، وتناديني الهاوية، يخيّل إلي أنه، وفي لحظة سقوطي، سينبت من مسامي ريش ملون. من جذور نفسي سيطلع الريش مزدهراً ومكتملاً، وسأحلق في الفضاء كالطيور والنسائم وأشعة الشمس. أريد أن أقطع الأمراس الليفية الخشنة التي تحفر لحمي، وتقمع جسدي. أمراس مجدولة من

الرعب والحشمة والعفة ومشاعر الدنس والقذارة.. من المواعظ والآيات والتحذيرات والأمثال ووصايا الأسلاف. صفائح فوقها صفائح، يذبل الجسد داخلها ويضمر. أريد يا شيخ قاسم أن أعتق جسدي، وأفك عنه هذه الحبال التي تمتص دمه، وتقمعه. أن يغدو حراً، وأن يستقر في مداره الذي خلق له، كالورد وأوراق الشجر، كالقمر وأعشاب الأرض، كالغزلان وينابيع السفوح، كالنور وكل ما هو حي في هذا الكون. أحلم أن أصل إلى نفسي، وأن أكون شفافة كالزجاج. ما تراه العين مني هو سريرتي، وسريرتي هي ما تراه العين مني. إن في قلبي مواجد محرقة، وأشواقاً كاوية، من العسير أن أشرحها، أو أجد تعبيراً يلائمها.

المفتي : عجيب أمرك يا مؤمنة!

ألماسة : قلت لك.. اسمي ألماسة، وأنا حريصة على حماية اسمي.

المفتي : عجيب أمرك يا امرأة! تقولين مالا يدركه العاقل. ماذا تقصدين؟ هل تزينين الانحلال؟ هل تعتقدين أنك ستجدين ما تفتشين عنه في الدعارة؟ هذا غريب.. هذا شاذ وغريب.. قولي لي إن هذا كله ليس إلا نزوة.

ألماسة : نزوة..! لا يقلب المرء مصيره من أجل نزوة. وفي معاييرك ينبغي أن يبدو الأمر شاذاً وغريباً.

المفتي : لا معاييري فقط بل معايير الناس طراً.

ألماسة : نعم.. وأول المقامات في رحلتي هو أن أرمي وراء ظهري معاييركم. ينبغي أن أتحلل من أحكامكم، ونعوتكم، ووصاياكم كي أصل إلى نفسي. ينبغي أن أتجاوز خطر الانتهاك كي ألتقي جسدي، وأتعرف عليه. صنعتم مني عورة هشة يمكن أن تنتهكها الكلمة والنظرة واللفتة. وجعلتم

دأبكم انتهاك هذه العورة، فصرنا جميعاً زواحف تتناهش في مستنقع من الأكاذيب والمظاهر والقيود. وأنا يا شيخ قاسم قررت أن أخرج من المستنقع النتن، وأصير بحراً لا ينتن. في الدعارة سأخلع عني صفة العورة وشرطها، وسأغدو خارج حدود الخوف والانتهاك. لا أعتقد أنك ستفهمني. وعلى كل لم يعد مهماً بالنسبة لي أن يفهمني أحد.

المفتي : دوختني يا ألماسة. في نبرتك وتصميمك ما يرعش بدن السامع. تمدّين يدك إلى المعاصي بتهور لم تسبقك إليه امرأة في هذه المدينة. أعرف أن في صدرك أهواءً عنيفة، ولكن هل أستطيع أن أتركك تمضين في هذا الدرب؟ إن امرأة لها عزمك وقدرتك على الكلام، يمكن أن تفسد سلطنة من النساء. إنك تقلبين مألوف حياتنا، ونظامنا، ومستقبلنا. لا.. لا أستطيع أن أسمح لك.

ألماسة : وماذا تريد أن تفعل؟

المفتي : إن سلاح الفتوى يستطيع أن يفعل الكثير.

ألماسة : هل أفهم أنك تعلن الحرب؟

المفتي : هذه حرب لا أريدها، ولا أتمناها. اصغي إلي.. من منا لاتراوده في خلوته أهواء وأشواق! من منا لاتوسوس له الشياطين في لحظة الغفلة!

ألماسة : أتعترف أن لديك أهواءً ووساوس!

المفتي : **(محنقاً)** نعم.. إن لدي أهوائي ووساوسي. ولكني أضبطها، وأكبت جموحها. إن أمرك يهمني، ورغم كل هذه الاعترافات ما زلت راغباً بك.

ألماسة : ستجعلني أظن أني بعض وساوسك.

المفتي : لا أدري إن كان وسواساً، أو حمقاً، أو جنوناً. منذ التقيتك وصورتك تلاحقني. إنك قلق في الفؤاد، واضطراب في

الروح. لا أدري ماذا أقول.. ولكن أرجو أن تعقلي، وأن تقبلي عرضي.

الماسة : أهو الحب يا مفتينا..!

المفتي : لا أدري ما هو، ولا تسأليني شيئاً. هل تقبلين الزواج أم لا..؟

الماسة : إن طريقينا مختلفتان. وأشواقي لايمكن أن يلبيها الزواج.

المفتي : أتوسل إليك.. لا تسرعي في الجواب. تمهلي، وفكري.. إني.. إني أريدك.

الماسة : هذا الاعتراف يمكن أن يشعر أي امرأة بالزهو، ولكن ما العمل.. قلت لأبي إن مصيري تقرر. ولا أستطيع أن أهرب منه، أو أتنكر له.

المفتي : في هذه الحالة، أنت من يعلن الحرب.

الماسة : لو نشبت الحرب، فستكون هي الأخرى جزءاً من مصيري. حين يترك المرء الحافة ويعوم في الفضاء، يستحيل عليه الرجوع إلى الوراء. والآن وداعاً يا مفتينا.

المفتي : ليس بعد الحافة إلا القاع.

الماسة : **(وهي تخرج)** هذا احتمال لم يغب عن البال.

المفتي : يا رب.. ما هذه المرأة! أين أنزلق، وكيف أهدئ هذا الخفقان في روحي! يا رب.. إني مأخوذ، وإني عاشق. لم تبقَ في هذا القلب أي مسرة.. لا شيء إلا الوسوسة والكدر.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس

(في السوق. إبراهيم دقاق الدودة وحميد العجلوني أمام محلاتهما وثمة مارة في الطريق).

حميد : **(يصرخ من باب المحل)** يا ولد.. أسرع بالشاي.

الولد : **(من الداخل)** سأحضره حالاً.

إبراهيم : هل تسجل الوقائع المذهلة التي تجري حولنا؟

حميد : والله هذه غرائب تسلب الرشد، ما عرفناها على عهد آبائنا وأجدادنا. تقول حسدنا أنفسنا على الحياة الرائقة التي تميّز هذه المدينة.

إبراهيم : أتصدق.. صار النوم يجافيني. كلما فكرت أن مؤمنة بنت الخزار فتحت بيتاً وتسمّت ألماسة، أشعر بالحصر وبأن حياتنا مقبلة على الفوضى والجنون.

حميد : يا سيدي.. بدأ الجنون فعلاً. لا حديث على لسان أحد إلا ألماسة. بدأ العطارون يسمّون أفخر عطورهم ألماسة. وبائعو الذهب لايصنعون حلياً إلا كالتي تتزين بها ألماسة. وقيل لي.. سينزل إلى السوق حرير اسمه ألماسة. لقد جن الناس، وسيطر عليهم ما يشبه السحر الأسود.

إبراهيم : والمفتي..! أليس الواجب أن يتحرك، ويتصدى لهذا الجنون!

حميد : علينا أن نزوره، ونتداول الأمر معه. لاشك أن انزواءه يخفي سراً. **(هامساً)** يا سيدي.. يبدو أن سحر ألماسة لطش عقل

الوالي نفسه.

(يدخل الولد حاملاً صينية وطبلية صغيرة. يركزها أمامهما، ويصب الشاي لهما).

الولد : شاي ألماسة يا سيدي..

حميد : تأدب يا ولد.. ما هذا الكلام!

الولد : كل شيء فاخر اليوم يسمونه ألماسة يا سيدي. انظر.. شاي أكرك عجمي أصلي.

حميد : **(وهو يصفعه)** انقلع من وجهي.. **(يغيب الولد في المحل، وهو يضحك)** تفضل يا سيدي.. حتى الأولاد صاروا يلهجون بذكرها، ويتلمظون باسمها. إنها جائحة من الجنون.

إبراهيم : أعتقد أن هذا بعض تأثير الأجانب. إننا ندخل في فوضى لا أحد يعرف ماذا يكون ختامها.

حميد : معك حق. هذه الجائحة تفوح منها رائحة غريبة.

(يظهر سمسم في الشارع، وهو يتقصع في مشيته).

أحد المارة : كيف الشغل يا سمسم؟

سمسم : خَنٌ طيزك. من كثرة المحلات سكرنا المحل. **(يتوقف قرب حميد وإبراهيم)** يا أهل الإسلام.. هل يجوز ما يحدث! كانت لي تجارة صغيرة على قدٌ **(ويضرب بيده على مؤخرته)** هذه الراجحة. فضاقت عيون الجميع منها. الزكرتية فتحو من الوراء، والأكابر فتحوا من قدام. قولوا أيها الأوادم.. ألا تبور التجارة إذا كثرت البضاعة!

إبراهيم : هل اشتدت المنافسة في سوق البغاء إلى هذا الحد؟

سمسم : إنها كالحمى. وإذا لم يسعفني رجل فاضل مثلك وأجره عند الله محفوظ، فإن العنكبوت سيعشش في دكانتي ومهجتي.

حميد : اذهب قاتلك الله.

سمسم : يا حميد أفندي.. أنت لا خير فيك. لولا الجزر لكان حالك

صعباً مع أهلك.

حميد : **(يهبّ غاضباً)** تفو عليك وعلى مرباك.. امش من هنا.

سمسم : لا عليك يا حميد أفندي. ألا تحتمل مزحة صغيرة.! إنكم لاتؤاجرون، ولا تواسون. ألا أقصُّ عليكما خبر العفصة!

حميد : اذهب يا سمسم. لا نريد أن نسمع شيئاً.

سمسم : يا هو.. يا ناس.. لم يتركوا لمعلم الصنعة رزقاً. العفصة وست الأشراف ألماسة والذين يستعدون للنزول إلى السوق عشرات بل مئات. صارت ضيقة، ضيّق الله عليهم.

(يواصل سيره).

حميد : كيف سكتنا على مثله! أما كانوا يهدرون دم أمثاله!

إبراهيم : كان ذلك قبل أن يملأ أمثاله قصور السلاطين، وأولياء الأمر.

حميد : ينبغي أن نزور المفتي هذه الليلة.

إبراهيم : كما تشاء.

(ترتفع جلبة صبيان لا تلبث أن تتضح تدريجياً. ونرى عبد الله وقد علق كيساً في رقبته وملأه جوزاً، والأولاد يتدافعون وراءه).

الأولاد : **(يغنون ويصفقون)** يا عبد الله.. يا مجنون، ضروب الكف وخود الجوز.

(يقتربون تدريجياً في السوق، والناس تتفرج عليهم، وتحوقل).

عبد الله : **(إلى أحد الأولاد)** جاء دورك. **(يتردد الولد)** تعال.. هذه هي الجوزة. نعم.. نعم على الخد. لاتخف، وقوّها. **(يصفعه الولد على خده)** وهذه هي الجوزة. انظر إذا كانت فارغة، سأبدّلها لك.

الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف وخود الجوز.

(يندفع حميد وإبراهيم، ينهران الأطفال، ويحاولان تفريقهم).

عبد الله : دعوهم.. فإنهم يفكون أغلالي، وينقذونني منها.

حميد : مَ ينقذونك أيها السيد، وماذا تفعل بنفسك؟

عبد الله : ناديته بالاستغاثة.. إلهي! أدعوك دعاءً لم يبق له غيرك! فلما عرف صدق الدعاء من قلبي والإياس من نفسي، كان أول ما أورد علي من إجابة هذا الدعاء أن قال.. اترك نفسك وتعال. وحين تركت نفسي، نظرت إلى الخلق، فرأيتهم موتى، فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

حميد : لايجوز يا سيد عبد الله.. إنك تحط من مركزك ومقامك.

عبد الله : وددت أن الله تعالى جعل الدنيا بزينتها ومراكزها لقمة واحدة، فأعطانيها حتى أنبذها بين يدي كلب، فلا يغترّ بها الخلق.

إبراهيم : طيب.. تعال. لندخل إلى المحل، ونتكلم.

عبد الله : إليكم عني. من عرف الله، بُهت ولم يتفرغ إلى الكلام.

حميد : يا سيد عبد الله..

عبد الله : إليكم عني. **(إلى الأولاد)** تعالوا يا أحبائي.. فأنتم رحمتي. تعالوا، وحرروني من اللّوامة، والأمّارة والسجّانة.
(يتابع طريقه ملوحاً للأولاد بكيس الجوز. بعد تردد قصير يتبعه الأولاد، وهم يغنون ويصفقون).

الأولاد : يا عبد الله.. يا مجنون. ضروب الكف، وخود الجوز.

إبراهيم : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ما الذي بدّل أحوالنا على هذا النحو!

حميد : لاشك أن عيناً أصابتنا.

إبراهيم : كأن زلزالاً ضرب هذه المدينة المطمئنة، فخرّبها، وأخرج خبائث بطنها. بدأت أتطيّر فعلاً مما تخبئه الأيام.

حميد : هذه الليلة، يجب أن نطلب من المفتي أن يتدخل قبل أن يجرفنا الخراب.

إبراهيم : نعم.. حان وقت المفتي.
(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع

(في بيت العفصة يجلس العفصة حزيناً ومسحوقاً، وبين يديه حبل عقدت في طرفه أنشوطة. بحركات شاردة يحف الحبل بقطعة صابون كي يلين، ويصبح زلقاً).

العفصة : لم يعد هناك أمل أو رجاء. آه لو أحسن الكلام.. ولكن ما جدوى الكلام إذا لم يكن هناك من يصغي..! فقدت مكاني في عيون الناس، والذي كشفت سري من أجله، رماني وسمّاني عرّة. فماذا بقي أمامي..! هي خطوة محتومة، وعلي أن أخطوها. ما أغرب هذه الدنيا..! إن كتمت وأخفيت، عشت وتكرمت. وإن صدقت وكشفت، نبذوك وأخرجوك منهم. لم أعرف كيف أعبر له.. إني أشجع منه. أحبني حين كنت كذباً وهيئة، ثم ازدراني ورماني حين جئته صافياً كالبلور بلا كذب أو هيئة. هو الكذب، وهو الجبن. لم يفهم الشجاعة التي تحليت بها، والعذابات التي كابدتها كي أتصالح مع نفسي، وأغدو شفافاً. لا أستطيع أن أندم.. لا أستطيع أن أتراجع، ولا أستطيع أن أتقدم. أغلقت الأبواب، وهذه الدنيا ظالمة لايعيش فيها إلا المزوّر أو الكاذب.

(ويذهب إلى زاوية جانبية، يربط الحبل في عضاضة السقف، وتتدلى الأنشوطة.. يضع طاولة تحتها ويقف عليها. يضع الأنشوطة في رقبته).

العفصة : يا الله.. إني أخجل من مناداتك، ولا أعرف كيف سألقاك. يا رب وأنت العادل الرحيم.. تثبّت قلبي، وصبّر أمي، واغفر لي.

(يدفع الطاولة من تحت قدميه، فتنزرد الأنشوطة على رقبته. حشرجات مخنوقة، ثم يعم صمت ثقيل، وتتلاشى الإضاءة).

المشهد الثامن

(بيت السيد محمد الخزار. الشيخ محمد ومعه ولداه. البكر عبد الرحمن والأصغر صفوان).

صفوان : **(منفعلاً)** لماذا نتحاشى الحديث في الموضوع! ومتى يقول الأب كلمته! فاحت رائحتنا، وزفّرت هذه القحبة اسمنا وعائلتنا.

الشيخ محمد : اسكت، ولاتتكلم بلا إجازة.

صفوان : إننا لانفعل شيئاً إلا التصفّن. ألا ترى يا أبي أننا سجناء، وأننا لانستطيع مواجهة الناس ما دامت حية!

الشيخ محمد : لا أحب اللغو يا صفوان. هل صالحت زوجتك يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن : فعلت ما أمرتني به يا أبي.

الشيخ محمد : أي.. الله يرضى عليك يا ابني. أنا اخترتها لك، وأنا كفلت عند أهلها حسن المعاملة. فأرجو أن تحفظ عهدي، وأن تظل على وفاق معها.

عبد الرحمن : كان خلافاً عابراً، وأعدك ألا يتكرر يا أبي.

الشيخ محمد : أريد أن أظل سيد بيتي حتى يحين لقائي مع ربي.

عبد الرحمن : إنك السيد يا أبي.

صفوان : أتريد أن تكون سيد الغرف والحجارة، أم سيد أهل الدار!

الشيخ محمد : لا ترهقني أيها الغلام. رأيت فيما يرى النائم يا عبد الرحمن

أن السماء تمطر حين أُقبض، وأن يداً نورانية تقشع الغيم عن وجه السماء حين أحمل، وأن شحروراً لطيفاً يكبّر حين أضجع في القبر. كأني الآن أراه، وهو يحوّم مسبحاً ومكبراً. أفليست تلك إشارة..!

عبد الرحمن : نعم يا أبي.. إنها إشارة وبشارة بعد عمر طويل إن شاء الله.

الشيخ محمد : إيه.. كانت حياتي مكابدة قاسية ومرهقة. خلقني الله وخلق معي، في ذاتي عدوّي. وأمضيت ردحاً من عمري، أعاند قضائي، وأتخبط في حربي مع نفسي. حرب رهيبة، يتواصل فيها الكر والفر. حين يغلبني، أخضع له وأشاطره عبثه. وحين أغلبه، يخضع لي ويشاركني صلواتي وخشوعي. كانت الحياة امتحاناً عسيراً، وعذاباً مقيماً. ثم ألهمني الله.. أني وعدوّي من خلقه وقضائه. وأن عليَّ أن أبدل الحرب مساكنة وصحبة. فقرّت نفسي، وعرفت الرضا والسكينة. ومازال الواحد يلبي نداء الآخر طوعاً وحباً.. لقد جزت الامتحان، وأشعر أني خفيف أمام ربي. والآن.. وأنا أتهيأ لملاقاته، لا أريد أن أثقل خفتي بالدم.. فما قولك يا عبد الرحمن..؟

صفوان : وأنا..! لماذا لاتعبّرني، ولا توجه الكلام لي!

الشيخ محمد : اسكت أنت.

صفوان : لماذا أسكت!

الشيخ محمد : لأنك ترغي كثيراً، وتدبّر قليلاً. أفسدتك أمك بالدلال.

صفوان : لماذا لا تجربني! كلفني أن أدبّر أمراً.

الشيخ محمد : لن أكلفك، ولن تفعل شيئاً. ماذا قلت يا عبد الرحمن..؟

عبد الرحمن : القول لك يا أبي.

الشيخ محمد : هل تريد أن تلطخ يدك بدمها؟

عبد الرحمن : سأفعل إذا أمرتني.

صفوان : وأنا جاهز.

الشيخ محمد : أخشى أن تفضحنا بالموت أكثر مما فضحتنا بالحياة. إني على حافة قبري، ولا أريد أن احمل معي في الكفن وزراً ودماً. يكفي أن نتبرأ منها، ونتركها في ضلالها.

صفوان : والناس.. بأي وجه سنلقى الناس! عافت نفسي هذا السجن. هي تسرح على كيفها، وأنا أنزوي خجلاً في هذا البيت.

الشيخ محمد : هل توافقني الرأي يا عبد الرحمن؟

عبد الرحمن : هذا هو الرأي الصائب. لماذا نضاعف الفضيحة دون فائدة. وأما الناس فسيعرفون أننا تبرأنا منها، وأننا لم نشأ أن نلوث أيدينا بدمها.

الشيخ محمد : كان المنام إشارة. يريدني أن ألقاه خفيفاً.

صفوان : هذا الرأي سيجعلنا سُبّة على الألسنة حتى أحفاد الأحفاد. لا.. لابد من سفك دمها.

الشيخ محمد : أنا أعرفك يا صفوان. كنت دائماً عِرق ضراط، فلا تتبجح أمامي.

صفوان : وأنا أعرف أنك تكرهني، لأن أمي ميّزتني، وأحبتني.

الشيخ محمد : لا أكرهك يا بني. لكن لا أحب أن تتشدق في حضرتي، ولا أقبل أن تخالف أمري..

صفوان : إنك تقرر لنا العار، وتأمرنا بقبوله.

الشيخ محمد : تأدب يا ولد.. حين يتكلم الكبار ليس عليك إلا أن تصغي.

عبد الرحمن : عيب يا صفوان.. أتخالف رأي أبيك!

الشيخ محمد : ومن الذي يخالفني! أنسيت يا ولد كيف يغمى عليك حين ترى دجاجة تذبح، أو دماً يقطر من جرح! دللتك أمك، ولم تعلمك الأدب. قم.. لا أريدك في حضرتي.

صفوان : **(وهو يخرج)** سترى يا أبي.. وسيأتيك خبري.

عبد الرحمن : أخشى أن يتهور.

الشيخ محمد : لا تشغل بالك. هو يرغي، ويتشدق لا أكثر. أفسدته أمك رحمها الله. وما أخشاه هو ألا يبلغ مبلغ الرجال أبداً.

عبد الرحمن : مازال صغيراً، وستنضجه الأيام. على كلٍّ اسمح لي أن أهدئه، وأن أحتاط عليه قليلاً.

الشيخ محمد : لابأس. ولكن علّمه أن يتأدب في حضرتي. هيا بنا.. حان وقت الصلاة.

عبد الرحمن : **(وهو يساعد أباه على النهوض)** يا الله..

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد التاسع

(في بيت المفتي. المفتي وحميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة).

حميد : فسد البلد، وتغيرت أحواله يا شيخ.

إبراهيم : لم يعد المرء يتعرف على الشام التي ألفناها. شام المحبة والغيرة. ألّمت بنا جائحة بدّلت العفة فجوراً، والأمن قلقاً وجنوناً. ألم تصلك أخبار ألماسة، وما فعلته بالرجال! لا أدري من أين تهب علينا هذه الفوضى! منذ حكاية النقيب تزلزلت المدينة، وانقلب عاليها سافلها.

حميد : وامتد البغاء إلى الرجال. تراهم يتبخترون في السوق على عيون الناس، وليس من يستنكر. لقد أصابتنا عين أو عُمل بنا شر.

المفتي : أعتقد أن لدي صورة وافية عما يجري.

إبراهيم : لن ينقذ المدينة إلا موقف حازم كتلك المواقف التي عوّدتنا عليها.

حميد : هل تتريث عن قصد!

المفتي : نعم.. لماذا أتريث..! لعلي أنتظر أن يسفر الشر عن وجوهه كافة.

حميد : ونحن نقول.. أسفر الشر عن وجوهه، وبالغ في السفور.

إبراهيم : هذا أوانك، ولن يوقف تدهور الأحوال سواك.

المفتي : حقاً.. ربما أزف الوقت كي نقمع هذا الفساد. تلك المرأة سمّمت حياتنا، وأرّقت نومنا، مسّت عقولنا. تلك المرأة جسد يسكنه إبليس. ولن تعود المدينة إلى رواقها إلا إذا هتكنا إبليس، وطهرنا البلد منه. أيها الناس.. اطردوا إبليس، لاحقوه، ارجموه. أعوذ بالله.. وأستغفر الله.. **(ينهار على مقعده).**

إبراهيم : هذا هو المفتي الذي نعرف. هذا هو الرجل الذي سيجابه الفوضى.

حميد : ما حالك يا شيخ! هل تشكو مرضاً؟

المفتي : ذكر الشيطان أنهكني. إني مرهق، أشعر انحلالاً في جسدي.

إبراهيم : عافاك الله.. هذا تعب الانفعال والغيرة. كيف كان يمكن أن تجري أمورنا، ولو لم يكرّمنا الله برجل مثلك؟

المفتي : **(متعباً)** هل تطلبان مني أن أفتي؟

إبراهيم : أنت أدرى منا. ولكن أعتقد أن هذه البلبلة لا تصلحها إلا فتوى حازمة.

المفتي : إذن.. ستكون فتوى رهيبة. فتوى تهدر الدم. وأي دم.! **(ينتفض، ويتكلم بشرود)** سنغوص في الدم.. إن المعركة مع الشيطان مهولة، لأن للشيطان حيله وألاعيبه. في كل واحد بعض منه. وكل واحد سيقاتل نفسه، ويذبح نفسه، ويسفك دم نفسه. إني محموم.. وهذه الحمى لاتفارقني نهاري أو ليلي.

حميد : شفاك الله.. أتريد أن نعود في وقت آخر؟

المفتي : لا.. هذه الليلة يجب أن يحسم المفتي أمره. ألست ملجأكم..! ألست مفتيكم..! يجدر بي أن ألملم شتاتي، وأن أقهر ضعفي، وأن أعلن حربي. نعم.. حرب ستطهرنا، وتعيد

ما تخلخل من أوضاعنا إلى مقامه ومكانه. **(بلهجة إعلانية)** إن مفتي الديار الشامية **(يتوقف)** كم أحتاج إلى الصلاة..!

إبراهيم : **(يخالس حميداً نظرات متحيّرة)** هل فاتت شيخنا صلاة العشاء!

المفتي : أتحدث عن النوافل. أريد أن أنغمر في الصلاة، كما ينغمر المرء في بحر دافئ. وحين أتأكد من نقاء نفسي.. لا.. لن يتردد المفتي، ولن يؤجل عمل الليلة إلى الغد.. اكتبا عني..

حميد : **(يفتش في جيوبه، ويخرج دفتراً صغيراً)** هذا دفتر حسابات، ولا يليق أن أكتب عليه.

(يتناول المفتي ورقاً، ويعطيه لحميد).

المفتي : خذ، واكتب.. إن مفتي الديار الشامية يهدر دم البغايا نساءً كانوا أم رجالاً. ويخصُّ بالذكر تلك البغي التي تدعى ألماسة لأنها تجاوزت كل حد، وأشاعت جواً من الرذيلة أفسد قلوب الرجال، وحاد بهم عن الفضيلة إلى حمأة الفجور والمعصية. إن مفتي الديار الشامية يحرّم أن تتزين امرأة بزيها، أو تتجمل على غرارها. إن مفتي الديار الشامية يحرّم أن تسمى أي بضاعة باسمها، وما وُجد منها يتلف.

حميد : يا شيخ..

المفتي : **(يشير إليه بالسكوت)** إن مفتي الديار الشامية يحرّم قراءة الكتب غير الدينية، ومن وجدت لديه مثل هذه الكتب فليحرقها، أو فليسلمها للمفتي. وقد تبيّن لنا أن من أسباب الانحراف والفساد قراءة هذه الكتب الشيطانية. إن مفتي الديار الشامية يحرّم الغناء والرقص، وكل ما ينتسب إلى الخلاعة، أو يؤدي إليها. إن مفتي الديار الشامية يأمر المسلمين بمهاجمة الأماكن التي تصنع فيها الخمور، ويحلُّ لهم إحراقها، وإهراق خمورها. كما يأمر بالقبض على من يشرب

الخمر، وجرّه إلى المحكمة الشرعية لإقامة الحد عليه. أعتقد أن هذا يكفي الآن.

حميد : **(مرتبكاً)** بل أخشى أنك تزيدت يا شيخ. للتجار مصالح، والناس لاتستغني عن الغناء واللهو البريء. ثم إن مسألة الخمور ليست ملحّة الآن.

المفتي : هل تريد أن نواجه بعض الشر أم كلّه!

إبراهيم : هذا حق.. ينبغي أن نواجه الشر بكل مظاهره وتجلياته.

حميد : أقصد.. لو تدرجنا في الأمر.

المفتي : فات أوان التدرج، وفات أوان التراجع. هذه هي الفتاوى. وتستطيعان أن تنشراها على الناس منذ الليلة.

حميد : ألن يصدّق عليها الوالي!

المفتي : وما علاقة الوالي! الفتوى مسؤوليتي، ولن يراجع مؤمن كلامي.

إبراهيم : ومن يجرؤ على مخالفة أوامر يصدرها.. مفتي الديار الشامية؟.

حميد : هل نمضي؟

المفتي : لحظة.. أعطني الورقة **(يمدّها له حميد)** لا.. لا أريدها. تلك هي الفتاوى، واعذراني فأنا متعب.

حميد : **(ناهضاً)** قوّاك الله يا شيخ.. ومتّعك بالعافية.

إبراهيم : وحياتك يا شيخ.. أزحت عن صدري غمامة ثقيلة. حين جئت، كنت متطيراً من الغد، وما يحمله. أما الآن.. فقد اطمأن بالي، وانقشعت الغمامة عن صدري. غداً تتوقف الفوضى بإذن الله، وتعود المدينة كما ألفناها. بارك الله فيك. **(يقبلان يد الشيخ، ويخرجان).**

المفتي : **(وحيداً)** وأخيراً.. تخطيت الوسواس، واستعدت زمام أمري. وغداً ترتج المدينة لذكري وهيبتي. وعدتها بالحرب، وها هي

الحرب تنشب. كيف قبلت هذا الخور والضعف! أنا الذي برعت في مقاومة أعدائي، والمكر بحسادي.. أترك وهماً من العشق يمكر بي، ويضيعني! وما شأنك أيها الرجل بالهوى وجنونه. للهوى صبية وحمقى.. أما أنت.. فهل يحق لك أن تلبّس على نفسك وهماً وهياماً..! آه.. إني أستيقظ من غفلتي وفتوري. ولكن في قلبي وخزة، وفي حشاشتي أنيناً. لن أصغي إلى الأنين، ولن أبالي بوخزات القلب وهذه السالفة طويناها. الليلة، طويتها. نعم.. إني أطويها.

(يتناول سجادة الصلاة، يفرشها على الأرض، يتوقف حائراً، يبدو عليه الحصر، يتهاوى على كرسيه، ويجلس مبحلقاً في الفضاء بعينين فاترتين وخاويتين).

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد العاشر

(في قصر الوالي. الوالي وخصي الحريم. يبدو الوالي في حالة هياج وانزعاج).

الوالي : واقعته سوداء هذا المفتي. هل تخبَّل..! كيف يصدر هذه الفتاوى! أيريد ولايتي مقبرة ومأتماً! ما الذي لم يحرّمه..!

الخصي : حرَّم حتى الكأس التي تروِّق مساءك، وتضاعف مسراتك.

الوالي : لن يحرمني شيئاً. حفر حفرته بيده، وسأطمره بها. ماذا يريد..؟ وكيف يتجاوزني بهذه الصلافة..؟

الخصي : لاشك أن لديه خططاً. وربما كانت لديه اتصالات سرية بالباب العالي. هذا الرجل ماكر جداً. قبل أن يأتي عبد الله، ويكشف لنا ملعوب السجن مبرئاً ذمته أمام الله، اكتشفت ليلتها أن الأمر مريب، وأن المفتي ذاته هو الذي دبَّر هذا الأمر.

الوالي : ولماذا لم تتكلم يومها!

الخصي : وجدتك ميالاً للتخلص من قائد الدرك.

الوالي : والآن.. بعد ما فعلناه به لايمكن أن نطمئن له.

الخصي : انظر كيف يلقينا في دوامات مكره، ويورّطنا في تنفيذ مآربه. أعتقد أنه لم يصدر فتاويه إلا بعد أن عرف أنك مولع بألماسة.

الوالي : حقاً.. كدت أنسى. كيف تعيش ألماسة الآن..! ينبغي أن نتخذ الإجراءات التي تضمن حمايتها. يجب أن تذهب

إليها، وتطمئنها. وسأرسل الدرك كي يحموا بيتها.

الخصي : لا.. لاتقع في الفخ الذي نصبه لك.

الوالي : ماذا تريد..! لن أترك الرعاع يفتكون بها.

الخصي : لابد أن الناس تعيش اليوم حالة من الهياج والحمّى. وإذا قاومت واحدة من الفتاوى دون سواها، بدوت متحيزاً، ولايدفعك إلى المقاومة إلا غرض شخصي. وهذا قد يزيد هياج الناس، ويحقق للمفتي بغيته.

الوالي : ولمَ هذه المواربات، ووجع الرأس! سأصدر فرماناً، يعطّل الفتاوى كلها دفعة واحدة.

الخصي : وستبدو أمام الناس، وكأنك تدافع عن الفسوق والمعاصي، وتعارض إقامة حدود الدين.

الوالي : (غاضباً) أعترف أني لا أتمتع ببرودك وصفاء بالك. إنك تجعلني أغبطك على فقدان خصيتيك. أنت الوحيد المطمئن وسط هذه البلبلة، لايقلقك هوىً، ولا تعمي بصيرتك امرأة. قل لي.. كيف ندبّر الأمر! وكيف نحمي ألماسة؟

الخصي : أرى يا باشا أن تؤيد الفتاوى، وتثني عليها.

الوالي : أتريد أن أرضخ لهذا الوغد! وإذا أيدت الفتاوى، فإن هياج الناس سيزيد، وستنفجر أحداث لانعرف كيف نسيطر عليها.

الخصي : لم تدعني أتمّ فكرتي. تؤيد الفتاوى ثم تعلن أن تطبيقها لايجوز أن يتم قبل أن تصدّق عليها مراجع الإفتاء في عاصمة الدولة العلية.

الوالي : سنعطيه مكسباً، ونرفعه مرتبة.

الخصي : ليرتفع، وليكسب الآن. المهم من يكسب أخيراً. ستأخذ مهلة تحاول أثناءها أن تقلب عليه الخواطر لدى الباب العالي، وربما هنا في الشام أيضاً.

الوالي : هذه طريقها طويل، والإلغاء أسهل وأضمن. لأني أخشى في الانتظار أن يحدث هرج وشغب.

الخصي : الإلغاء يعني المواجهة. والمواجهة الآن مع هيجان الناس قد يؤدي إلى شغب أكبر.

الوالي : إن الخطر يهدد ألماسة.

الخصي : إذا أبديت التأييد واقترحت التريث، فسيكون بوسعك أن تستخدم الدرك دون أن تستفز الناس، أو تعطيهم سبباً للشغب.

الوالي : أتعتقد أن هذا هو الصواب!

الخصي : نعم.. وفي هذه الحالة يمكنك أن تحمي بيت ألماسة دون أن تثير شبهة أو لغطاً.

الوالي : أتعلم.. إن تهور وجسارة عزت كان يمكن أن يفيدانا جداً في هذا الوضع.

الخصي : المسكين.. لم يعد فيه أي خير. لطش الملعوب عقله.

الوالي : وعلى كلٍ.. لا أستريح إليه. اذهب إلى ألماسة، وهدئ روعها. ولاتنسَ أن تحمل الهدية معك.

الخصي : وأنت يا باشا.. أصدر أوامرك للدرك كي ينتشروا في المدينة، ثم استدعِ الأعيان إلى السرايا. اشكر المفتي، واستكثر له البركات، وامتدح الفتاوى، واطلب منهم التريث والتأجيل.

الوالي : ليكن.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الحادي عشر

(في السجن. يُدخل السجان عبد الله إلى الزنزانة التي يوجد فيها قائد الدرك عزت).

عزت : ما هذا..! من أنت..! إني أنتظر المفتي، ولا أريد أحداً سواه.

عبد الله : غفرانك يا عزت بيك. دعني أقبّل يديك. دعني أقبل رجليك.

عزت : ما هذا يا رجل! ومن أنت..!

عبد الله : أنا.. عبد الله.

عزت : ومن عبد الله! وماذا تريد!

عبد الله : لا أعرف عبد الله أكثر مما تعرفه أنت. ولكن جئت كي أزيح عن عاتقي وزراً ثقيلاً. جاءني هاتف في الليل، وأيقظني.

عزت : هاتف ما هاتف! ماذا تعلّك يا رجل!

عبد الله : إي والله يا عزت بيك.. هاتف رهيب أيقظني من نومي، وقال لي.. كيف تستطيع النوم، وإنسان مظلوم، يتعذب في السجن بسببك! ومع بزوغ الشمس، ذهبت إلى الوالي، وكشفت له براءتك، واستحلفته أن يعفو عنك، وأن يضعني في السجن بدلاً منك. ولكن الوالي لم يعبّر كلامي، وعزاه إلى الخبل.

عزت : نعم.. ورأس أمي إنك مخبول يا رجل. نعم.. لا.. كانت زوجته. نعم.. لا.. لم تكن زوجته. هي، هي.. هي ليست

هي..

عبد الله : سأكشف لك الحقيقة.

عزت : **(منتفضاً ومتراجعاً كأنه لُسع)** الحقيقة..! لا.. لا تقل الحقيقة. أين الحقيقة! ما هي الحقيقة!

عبد الله : قبضت على نقيب الأشراف وهو يتبذَّل مع غانية مأجورة لا مع زوجته.

عزت : وما فائدة هذا الكلام! ورأس أمي لن يصدقك أحد، حتى لو كنت النقيب نفسه.

عبد الله : ألم أكن النقيب نفسه، ثم أنقذني الله من وهدتي، وأضاء قلبي بطرف من نوره.

عزت : يا رجل.. من أدخلك علي! هل تسايرني كي تهديني! وما قيمة هذه الحقيقة التي تقترب مني بها! إذا أعلن الناس جميعاً أنها كانت امرأته، فماذا يصير ما تتشدق به الآن! إنه افتراء وضلال. أو هو الجنون.. نعم.. هل أنت مجنون؟ اذهب يا رجل، ودعني بحالي. انتظر.. تعال.. ألديك مطرح للسر..؟

عبد الله : من عرف سره، استقل كل الأسرار.

عزت : ألا تريد أن تعرف السر؟

عبد الله : البوح مودة، فتكلم.

عزت : الحقيقة.. هي ما وافق أهواء السادة، وما انقادت إليه العامة انقياد الأعمى. وعدا ذلك لاتوجد إلا الافتراءات والظنون.

عبد الله : إنك تتحدث عن تلبيسات الدنيا، ولغوها. هل خفَّ مقدار الحقيقة حتى تحملها الألفاظ! لو تمثلت الحقيقة رجلاً، لهلك كل من نظر إليها لفرط جمالها وحسنها ولطفها. ولبدا كل نور ظلاماً أما بهائها.

عزت : وما هي هذه الحقيقة يا رجل؟

عبد الله : معرفة وجهه، والفناء في حبه.

عزت : ماذا تخرف يا رجل..! لماذا جئت! هل أرسلك المفتي كي تهديني إلى صراط إبليسه!

عبد الله : لا.. لا.. ما أرسلني إلا هاتف أيقظني في باطن الليل، وأمرني أن أسعى في فكِّ ظلامتك. ومع طلوع الشمس، سعى الفقير إلى الوالي، وبذل غاية الجهد في كشف ما لحق بك من ظلم، ولكن الوالي لم يبال، فسعيت إليك كي أطلب عفوك، وأبرئ ذمتي مما أصابك.

عزت : والله عال.. تضعونني في السجن، ثم تستغفرون مني. إني سجين.. ألا ترى يا رجل! أنا الذي كان يرتجف السجن حين يسمع خطواتي، غدوت سجيناً يهزأ منه السجان والدرك والمساجين! كيف كان هذا الكيد.! وكيف وقعت كالذبابة في الشرك.! هي زوجته.. وهي ليست زوجته.. وأنا أتعفن في هذا المكان ويتسرب عقلي قطرة قطرة.

عبد الله : لا تبتئس يا صاحبي.. ما السجن إلا كسواه من الأمكنة. وهنا في هذا السجن، عرفت الإشراق وجاءتني الإشارة. إن السجن الفعلي، هو سجن النفس. ومن أدرك ظلامه وحصره، يعرف أن هذه السجون هي كالرياض وكالقصور.

عزت : وَلَك.. ألا يكفيني ما بي! هل جئت تزيِّن لي بلائي!

عبد الله : كان وليي ومعلمي، حين لا يلحق به بلاء أو يصيبه عناء. ينادي ربه فيقول.. إلهي.. بعثت إلي خبزي. وما بعثت إلي بلائي، آكله معه. وكان يقول.. البلاء للأولياء كاللهب للذهب. وهو غذاء الرجال من مرتادي الوصال، ومريدي الاتصال.

عزت : أأنت مجذوب يا رجل؟

عبد الله : ليتني أبلغ هذه المرتبة.

عزت : أفي غيبتي.. صار المجذوب رتبة!

عبد الله : إن العبد إذا تخلّق، ثم تحقّق، ثم جُذب، اضمحلت ذاته، وذهبت صفاته، وتخلص من السوى. عند ذلك.. تلوح له بروق الحق بالحق، فيطّلع على كل شيء، ويرى عند الله كل شيء، فيغيب بالله عن كل شيء، ولا شيء سواه.. وهذا أول المقامات.

عزت : ما هذا..! أجئت تزيدني خبالاً! من يحتاج إلى أورادك وتخاريفك! واحد يفسق مع عاهرة، والمفتي يبدّل بالعاهرة زوجة، وأنا أضيّع لحيتي بين الاثنين! والله سأربي بك هؤلاء السفلة. خذ جوابي.. **(يبدأ بضربه، ورفسه، وعبد الله لايريم حراكاً)** هذه للمفتي.. وهذه للنقيب.. وهذه لزوجة النقيب.. وهذه للوالي.. سأسحقكم جميعاً.

(يزداد انفعال عزت كلما أمعن في الضرب، وعبد الله مستسلم بما يشبه اللذة).

عبد الله : **(متمتماً)** حسبي الرب من المربوبين. حسبي الخالق من المخلوقين، حسبي الساتر من المستورين. حسبي القاهر من المقهورين. حسبي الذي هو حسبي. حسبي من لم يزل حسبي.

عزت : **(يصل ذروة الغضب، ويتحول صوته كالخوار)** العمى.. أليس فيك عرق رجولة! آأنت حجر، أم شجر، أم رمّة!

عبد الله : من توكّل، كان كالميت في يدي الغاسل، يقلّبه كيفما شاء. يا رب.. وعزتك وجلالك.. لو قطّعتني إرباً إرباً، وصببت علي العذاب صباً، ما ازددت لك إلا حباً.

عزت : **(وهو ينطُّ من الغيظ، ويرفس عبد الله رفسة تقلبه، وترميه نحو الباب)** يا ناس.. يا هو.. من هذا المخبول الذي أدخلتموه علي..!

(يصل السجان مهرولاً).

السجان : ما هذه الضجة! خزاك الله.. ماذا فعلت بالشريف عبد الله! وأنت يا سيد عبد الله.. كيف تخاطر، وتدخل على مجنون!

عزت : ومن هذا..؟

السجان : لاريب أنك أجِّرت الفوقاني. هذا السيد عبد الله نقيب الأشراف.

عبد الله : **(ينهض مذهولاً ومأخوذاً)** لقد بَلَغت. إن ضوءك يبهرني. إني أسيل كشمعة نحيلة، وأتلاشى فيك. أسبل علي ستور أنوارك، وغطني عما سواك. بعد الوصال، ماعاد للعاشق بغية إلا الفناء. إني أفنى، إني أفنى.

(يخرج من السجن فيما يراقبه الآخران مبهوتين).

عزت : كلهم عرصات.. كلهم أوغاد. رموني بهذه البلية، واختفوا.. وهذا جُنَّ.. يا فرحي.. يا فرحي.. جنون.. كله جنون.. ورأس أمي سيعمّ الجنون.

السجان : **(وهو يغلق الباب)** إي خراس.. أأنت من يحكي عن الجنون! اشتغل بنفسك، وفتش عن عقلك.

عزت : هي ليست هي. وأنا العاقل بينكم.

(يوجه له السجان حركة بذيئة، ويتركه).

السجان : لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا غيّر حال السيد النقيب! وأين اختفى!

عبد الله : **(يتناهى صوته مبتعداً)** هذا السجن مبارك. فيه جائتني الإشارة. وفيه أضاءتني الرؤية. بعد الوصال ما عاد للعاشق بغية إلا الفناء. ما أحلى الفناء فيك.. ما أحلى..

(يتلاشى الصوت والضوء).

المشهد الثاني عشر

(في السوق. حميد العجلوني وإبراهيم دقاق الدودة. يحمل حميد كراسة، يلوّح بها لإبراهيم).

إبراهيم : ماذا دوّنت عن أحوالنا؟

حميد : سأقرأ لك ما دوّنت. **(يفتح كراسته)** وفي هذه الأيام توالت على الشام هزّات، ما تعودنا عليها، ولانعلم لها مثيلاً في سالف الزمان.

قبل أيام شنق العفصة نفسه في داره بعد أن كشف الله سرّه، وتبيّن أنه عِلق، يُلاط به، وليس لديه من الرجولة إلا صورتها. ومن غرائب الأمور أن المذكور كان يُحسب على الزكرتية، ويُعدّ رجلاً بين الرجال. وقد كانت جنازته جرسة لم يحدث مثلها من قبل. اجتمع الأراذل والسفهاء، وراحوا يهزجون وراء الميت أهازيج سفيهة وبذيئة، ولم يقدّروا للموت حرمة. والفقير يقول.. إن حرمة الموت ضرورية، حتى ولو كان الميت لا يستحق الرحمة. وبعد نهاية الجرسة، ألقوه في حفرة دون أن يصلي عليه أحد. ولم يذرف أحد دمعه إلا أمه العجوز التي ظلت في البيت تنوح.

وفي هذه الأيام أصابت السيد عبد الله الذي كان نقيب الأشراف جذبة قوية، وتسربل بمرقعة زرية، وصار يطوف في الشوارع طالباً اللوم والزراية به. وقيل إنه سلك درب الصوفية

على غير طريقة تُعرف أو شيخ يرشده. وفاتحه إخوته في أرزاقه، فقال لهم: أتريدون أن تتقاسموا هماً ومربضاً في النار؟ خذوا ما شئتم واخرجوا عني. من عرفه لايشغله عني شيء.

وفي هذه الأيام أيضاً فشا الفسوق، وما عاد الناس يستخفون. وخاصة بعدما كان من السيدة الشريفة زوجة النقيب التي لحقت بنات الخطا، وصار لها لمعان وصيت.

وما كنا نعرف مآل هذه الأحوال لولا أن المفتي، أعزّه الله، تداركنا بفتاواه. وقد أحدثت هذه الفتاوى التي تقطع دابر الفجور، وتستأصل الشر من الجذور رجّة عظيمة بين أهل الشام، فغالى البعض في الحماسة، وغالى البعض في الإنكار.

وكادت تحدث فتنة لولا أن الوالي اجتمع بالأعيان، واستمهل تنفيذ الفتاوى رغم موافقته عليها. وما أثار دهشة الحضور، هو تخلف المفتي عن هذا الاجتماع، ولم نعرف السبب إلا أن يكون ما لاح عليه من أعراض السقم يوم زرناه، عافاه الله وشفاه.

ويقول الفقير.. إن هذه الفتاوى على ضرورتها تجاوزت قليلاً حدود الاعتدال.

إبراهيم : وعليك أن تضيف.. وما زلنا على الحال نترقب ما تأتي به الأيام.

حميد : أتعلم.. كنت أتوقع البارحة مقتلها.

إبراهيم : أتظن أن مقتلها سهل إلى هذا الحد! صار وراءها والٍ وحزب من الرجال.

حميد : يدي على رأسك يا إبراهيم. ألا يغريك أحياناً أن تزورها؟

إبراهيم : (منتفضاً) فضّ هذه السيرة يا حميد.

حميد : حلّفتك، فأجبني.

إبراهيم : أف.. ماذا أقول لك! والله هي التي تؤرق لياليَّ، وغوايتها هي التي تملأ صدري توجساً وقلقاً. إني خائف من نفسي.

حميد : الحال من بعضه يا إبراهيم. تحكى عنها أفانين عجيبة.

إبراهيم : أتخاف نفسك أيضاً.!

حميد : إني مبلل بالغواية. وحين أتخيلها، يتسارع دمي وتتلاحق أنفاسي.

إبراهيم : ما أغرب هذه الدنيا.. وكم هو هش مصير الإنسان فيها! أين الشاي؟

حميد : **(صائحاً إلى الداخل)** أين الشاي يا مقصوف الرقبة؟ **(يظهر الولد حاملاً الشاي).**

الولد : ها هو الشاي يا معلمي. شاي ألماسة مخمّر، ومعطّر.

حميد : اخرس يا ولد.

الولد : حاضر.. يا عيني على.. يا عيني على الشاي.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الثالث عشر

(في بيت ألماسة. غرفة مفروشة بطريقة تنم عن الذوق. سجاد وفرش وثيرة ومساند ومخدات أنيقة بالإضافة إلى أريكتين من الخشب المصدّف ومنضدة واطئة من الخشب نفسه. ألماسة وتبدو مزدهرة الوجه والجسد، لطيفة الزينة، ترتدي ثوباً بديع الطراز، يبدي تفاصيل جسدها دون ابتذال. وردة التي تظهر في هيئة شعثاء وعدوانية. عباس يحتجز وردة، ويحاول تهدئتها).

عباس : ليس الوقت مناسباً يا وردة.

وردة : وهل بقيت أوقاتاً مناسبة يا كنّاس الأدبار!

عباس : الزمي حدك، وإلا رُميتم خارج الدار.

وردة : أتتقوى علي..! مرّت على هذا البطن شوارب أغلظ من شواربك. وما شأنك أنت! لن أخرج قبل أن أصفي حسابي معك يا ألماسة.

ألماسة : اهدأ يا أبا الفهد. ماذا تريدين أن تصفّي يا وردة؟

وردة : ألا تعرفين..! هل تلاحقونني كاللعنة حتى الممات! ماذا فعلت لكم، وم تنتقمون؟ لم أكد أخلص من أهلك حتى برزت لي كضربة الغفلة، وأنا البلهاء.. وقعت في فخك. هل تذكرين أني معلمتك، وأن لي عليك حق الطاعة!

ألماسة : لا أنكر هذا الفضل، ولا أعرف ما الذي يغضبك الآن؟

وردة : اسمعوا يا ناس.. ولاتعرف ما الذي يغضبني! سرقت عزّي،

وأطفأت ضوئي، وها أنت تسببين بهدر دمي. ومع هذا تتصنعين براءة يوسف، وتسألين لماذا أنا غاضبة!

الماسة : وما حيلتي! أليست السكين فوق عنقي أيضاً!

وردة : أنت البلاء كله. أكسدت سوقنا، وهيجت الدنيا علينا، وأبحت دمنا. لعن الله الساعة التي عرفتك بها. من كان يصدّق أن تلك المرأة اللطيفة التي جاءتني متوسلة، تختزن في جسدها فنون ومجون ألفٍ من العاهرات! أتذكرين.. لم أكد أبدأ في تدريبك حتى تلألأت الأضواء فوقك، وخفتت أنواري..

عباس : قولي إن الحسد ينهشك.

وردة : نعم إن الحسد ينهشني. أينبغي أن يظلوا أكابر حتى في البغاء! أصابت الست الشريفة نزوة، فخطر لها أن تنافسنا في الكار. ودخول مثلها لا يتم بالمران والشقاء، وإما بعراضة تهز المدينة وتسلب عقول الناس. لقد أفسدت حياتنا، ودمرت الهناءة المنغَّصة التي كنا نحيا فيها. ماذا أفعل الآن! أين أذهب، وكيف أنجو! قولي يا ست الأشراف.. أشيري علينا.. ماذا نفعل؟

عباس : إننا ننتظر ضيوفاً يا وردة.

وردة : دع القِوادة الآن.. أعرف أن زبائنكم كثر، ولكن حياتنا أهم من متعة زبونك.

الماسة : اسمعي يا وردة.. لن يفيدنا اللوم أو الغضب. السكين فوق عنقي وعنقك، ولا حيلة لي فيما حدث. فماذا تريدين أن أفعل!

وردة : بلا لف أو دوران. أريد أن تفرقينا برائحة طيبة. أغلقي هذا البيت، وعودي إلى أهلك، أو زوجك لا أدري.. ولكن دعينا بحالنا. إذا خرجت من الكار، ستهدأ الزوبعة وسيزول عنا الخطر.

عباس : هل أكنسها؟
وردة : اذهب، واكنس دبر أمك.
عباس : تأدبي يا امرأة، وإلا عجنتك.
ألماسة : توقفا..
وردة : هل تذكرين.! وعدت أن تحفظي حرمة معلمتك، وأن تطيعها.
ألماسة : إني أحفظ حرمتك يا وردة، ولم يخطر لي أبدا أن أنافسك أو أسبب لك أذىً. وتذكرين أني أردت أن تظلي معي.
وردة : وماذا تفعل النواسة مع المصباح! حتى خادمتي بهرها الضوء، ولحقت بك. لا.. فضلت الابتعاد كيلا ينطفئ ذكري نهائياً.
ألماسة : فماذا ذنبي إذن!
وردة : أثرت هيجاناً لا يحتمله هذا الكار، ولا تحتمله هذه المدينة. ولذا أطلب منك ومعي كل البنات أن تخرجي منا.
ألماسة : إنك تطلبين المستحيل. لا أستطيع أن أتراجع.
وردة : أتعرّضين كل البنات للذبح من أجل نزوتك!
ألماسة : إني أعرّض نفسي. والمطلوب هو رأسي قبل رؤوسكن.
وردة : لولاك لما صدرت الفتوى، فاخرجي منا كي تهدأ الضجة ونتدبر أمورنا.
ألماسة : لا سبيل إلى الخروج. وحّدت الفتوى بيننا، وجمعتنا في مصير واحد. وأن نتضامن الآن خير لنا من أن نتنافر، وتنهش كل منا الأخرى.
وردة : لانريدك بيننا. إنك بلية.. إنك الموت. لانريد أن نموت من أجل لهوك ونزواتك. إذا لم تخرجي، سنكون حلفاً عليك.
عباس : أجئت تهددين يا بنت الأفاعي!
وردة : نعم إني أهدد، ولن نترك دماءنا تهدر كرمى لعينيها.
ألماسة : تكثر التهديدات حولنا يا أبا الفهد.

(تدخل الخادمة مسرعة)

الخادمة : سيدتي.. وصل المفتي.

وردة : **(باندهاش ورعب)** المفتي..!

ألماسة : دعيه يتفضل. دعي الحمق والغضب يا وردة، وغداً سنواصل الحديث.

عباس : ألا أبقى؟ أخشى..

ألماسة : لا.. لا أريد أن يبقى أحد هنا. سأستقبل المفتي وحدي.

(عباس يدفع وردة أمامه فيما تتلكأ ذاهلة. يدخل المفتي. وجهه شاحب، وهيئته توحي بالمرض. تسرع وردة، وتلقف يده، وتقبلها).

وردة : أنا في عرضك يا شيخ. إني أتوب. أريد أن أتوب. أقسم بالله إني أتوب.

ألماسة : اذهبي الآن يا وردة.

عباس : **(وهو يجرها، ويخرج بها من الغرفة)** يا الله..

ألماسة : شرفت، ونورت يا شيخ.

المفتي : أهدرت دمك يا ألماسة.

ألماسة : وهل جئت تنفذ فتواك بيدك!

المفتي : أنفذ فتواي..! هيهات.. اكتشفت أني أهدر دم نفسي حين تجرأ لساني، وأهدر دمك.

ألماسة : أتريد أن تخفف عني!

المفتي : إني أتكلم من القلب. لم يعد بوسعي أن أخفي النار التي تتوقد في صدري. هذا شيء لم أعرفه من قبل. إنه مرض لايشبه ما يعتري الأبدان من الأمراض. وأنا لا أعرف كيف أقوله.. لا أعرف كيف أعبر عنه.

ألماسة : هذا غريب. تفتي بقتلي، ثم تداعبني بالحديث عن المرض والنار التي تتوقد في الصدر. ماذا تريد، وعم تبحث؟

المفتي : ترفقي بي يا ألماسة، فأنا سقيم إلى حد التلف. أنت أشد محنة واجهتها في حياتي. بل أنت المحنة ولن تكون بعدك محنة إلا الموت، لا أعلم كيف مكرت بي الأقدار، وأين كانت تختبئ هذه اللواعج والنيران! منذ التقينا وأنا أحاول الفرار. ولكن هل يفرُّ المرء من خفقات قلبه ورعشات روحه. ضوى جسدي، وأسقمني صراعي مع نفسي. أعترف لك أني لم أصدر الفتوى، إلا لكي أقهر هذه النفس، وأستعيد إرادتي المهدودة. لم أعرف من قبل جيشان الهوى، وصبوات الشباب. لم أجرب الحب، وما حسبت أني سأجربه.

ألماسة : في عمرك هذا.. ولم تعرف الحب!

المفتي : كنت أظن أن الحب فساد ابتكره المجان والبطالون.

ألماسة : ولم تراودك أشواق؟!

المفتي : أمضيت عمري في ترتيب سيرتي ونفوذي، وكانت تلك هي أشواقي التي تغذي عزيمتي.

ألماسة : والآن.. ألا تعتقد أن ما تشعر به ليس إلا فضولاً وتخييلاً!

المفتي : ليته كان تخييلاً.. إني مريض يذوي وجداً وشوقاً. تداعى العقل والعزم، ولم يبقَ إلا هذا الهوى الذي يحرقني، ويذهلني عن نفسي. لا أعرف لغة العشق، ولم أتدرب عليها. إني أحبك يا ألماسة. إني أسيرك ولك أن تفعلي بي ما تشائين.

ألماسة : والفتوى!

المفتي : سألغيها. سألملم ما بقي من عزمي، وأعلن فتوى أخيرة تبطل كل الفتاوى.

ألماسة : أتملك الشجاعة على مواجهة الناس، وإبطال الفتوى!

المفتي : بعد أن تجرأت على نفسي لم يعد هناك ما يخيفني أو يحبط جرأتي. حين غلبني الوجد وقررت المجيء إليك، أحرقت سفني ورائي. إن فيَّ الآن قوة العاشقين واليائسين معاً.

ألماسة : ها نحن نلتقي في الهاوية ووراءها. **(تُضجع الشيخ على الفرش المبسوطة، وترتب له المساند والوسائد)** استرح يا شيخ، واهدأ. لقد اجتزت مفازة وعرة، وأنجزت رحلة عسيرة. كيف نفذت إليك الغواية! وكيف تبدّلت الطمأنينة، قلقاً ووحشة!

المفتي : ومن يدري كيف تخادعنا الأقدار، أو كيف نخادع أنفسنا..! ما كنت أظنه طمأنينة لم يكن إلا حجاباً يستر الأهواء المقموعة، والأشواق المحبوسة. كان الوجد يتخمر، ويفور في الدنان المسدودة. حتى لاح ضوؤك، فانزاح الحجاب وتدفق الهوى والشوق والوجد كنهر عظيم أفلت بعد انحباس. وحالي يا ألماسة هي حال رجل ضعيف، ينجرف ويتلاطم في عباب هذا النهر العظيم.

ألماسة : من كان يظن أن خروجاً على المألوف يمكن أن يخلق كل هذه الفوضى! ماذا تأمل أن أجيبك يا قاسم؟

المفتي : هل يستفتي السيد خادمه! إني أطمع بالكثير، ولكني أقنع بما تسخو به نفسك. يكفيني قرب أو التفات أو ظل. وأعتقد أن هذا العطش الذي يحرق جوفي لن يُروى أبد الدهر.

ألماسة : أتقبل بعطائي ولو كان زهيداً!

المفتي : إني في يدك وليس لي خيار.

ألماسة : مازلتُ في التجربة يا قاسم. لا أريد أن أتخاذل أو أنكص. أعرف أني خاسرة، وأن هذه الصبوة مستحيلة في بلد كل الناس فيها عبيد ومساجين. ولكن ما زلت أرغب أن أكون بحراً لا بركة آسنة. لا أريد أن يملكني أحد، وليتني لا أملك أحداً. الكل يريد أن يضع ختمه علي، وأنا أريد أن أظل طليقة بلا أختام. لم أجن إلا تفاهات مباذل. نعم.. إني خاسرة، ولعلي لم أعرف كيف أميّز أشواقي. ولكن لن

أتراجع، وسأظل أطارد هذا الحلم.. الحلم بأن أكون بحراً لايحتجز، ولا يفسد ماؤه.

المفتي : ما أشد نأيك، وكلما ازددت نأياً، ازددت هياماً. ليس حباً هذا الذي يطلب أجراً. ستكون اللفتة فيضاً، والبسمة سخاء، وهذا القرب عطاءً لا بغية لي وراءه. عدّيني بين المنذورين لك، وقلّبي ما تبقى من عمري على هواك. ألا يتحمل البحر غريقاً يخبط في مائه وموجه!

ألماسة : نعم.. ولن يدعك البحر تغرق قبل أن تذوق مباهجه، وربما حنانه. ودِّع الموادع الآن، وانزع هذه الأثقال عنك، ألا تريد أن تخف وتطفو..!

المفتي : ماذا أنزع!

ألماسة : هذه العمامة، وهذه الجبة. **(يتردد المفتي، فتساعده ألماسة في خلع ثيابه)** نعم.. اخلعها. انظر إلى جسدك. إنه كاللحد الذي يدفن وهج الحياة، وفورة الرغبة. ارفع الصفائح، وانبش هذا القبر. سنحتفل الليلة، وسنبعث الحياة من اللحد. **(تصفق بيديها، فتدخل الخادمة)** هاتي لوازم الفرح.

الخادمة : حاضر يا سيدتي.

ألماسة : الليلة سأرقص لك. سأدع جسدي يتفتح، ويتدفق. سأريك كيف يطير الجسد. كيف يتسع، ويفيض فيغدو بحراً.

المفتي : إن أعضائي تذوب، وتسيل. إن قلبي يكاد يفلت من صدري. هذا هو الفناء. إني أفنى فيك، وإني أولد جديداً في فنائي.

(تدخل عوادة تحمل عوداً، وتأخذ مكانها ثم تبدأ دوزنة العود. تلحقها الخادمة بصينية عليها شراب وطعام. تدريجياً تنتظم ضربات العود في نغمات إيقاعية. تنهض ألماسة، وتتهيأ للرقص بينما تتلاشى الإضاءة).

المشهد الرابع عشر

(الخادم والخادمة في غرفة متواضعة. يجلس الخادم على فراش ممدود على الأرض. بينما تنشغل الخادمة في تحضير مجمرة بخور).

الخادمة : أبطل المفتي فتواه، ووفى بوعده.

الخادم : المعتّر.. وهل بقيت له كلمة حتى يفتي أو يبطل!

الخادمة : لو رأيته.. كان كالميت بين يديها. ضائع اللب، مسلوب العزيمة. كنت أسمع أن الحب قتال. ولكن لم أصدق حتى رأيت المفتي، وعاينت أحواله.

الخادم : مهما أوغل المفتي في العشق، فإنه لن يصل إلى مرتبة سيدنا عبد الله. أحياناً أخشى أن يفارق الحياة من كثرة التوسل والبكاء.

الخادمة : ولكن عشق السيد عبد الله فيه هوسة.

الخادم : لعلها هوسة الأولياء. إنه مذهول بربه. يناديه كما ينادي معشوقاً، جماله يعمي الأبصار. إذا أحس إعراضاً، قتلته الوحشة وفاضت دموعه. وإذا لمس قبولاً، هزّه الطرب وفاض بالنور وجهه. وفي الحالين هو ذاهل عن الدنيا وما فيها.

الخادمة : هذا حال المفتي أيضاً. إنه يحب ألماسة حب العابدين. ناجاها كما يناجي الإنسان ربه، وقال لها كلاماً يفتت الصخر الجلمود. لماذا لاتقول لي كلاماً حلواً عن الحب!

الخادم : **(وهو يضربها على عجيزتها)** نحن نعيش الحب، فما حاجتنا إلى الكلام! ولكن لم تقولي لي.. لماذا تبخّرين الغرفة!

الخادمة : مرّت علينا بصّارة. قالت إن المدينة مسكونة، وأن هذه

الأحداث الغريبة هي من فعال أشرار الجن. وقالت إن دماً سيراق، وأن الهواء الأصفر سيأتي قبل أن يجف الدم.

الخادم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.

الخادمة : نصحت المرأة أن نبخر البيوت كل ليلة.

الخادم : **(وهو ينهض)** أستغفر الله العظيم.. هيا نبخّره معاً.

(يسيران في أرجاء الغرفة، وهما يبخران الزوايا والأثاث).

الخادم : كنت أعرف تعويذة.. نعم.. نعم.. بسم الله الرحمن الرحيم. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أيها الجن.. إن كنتم من المسلمين الصالحين، فالبيت لكم. وإن كنتم من الكافرين، أخزاكم الرحمن وأبعدكم.

الخادمة : قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.

الخادم : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق. بخّريني.. بخريني. **(تدور بالمبخرة حوله)** والآن.. هاتي كي أبخرك. **(يدور بالمبخرة حولها ثم يرفع ذيل فستانها، ويقرب المبخرة من فخذيها)** دعي البخور يتغلغل في جسدك كله.

الخادمة : يكفي.. دوّختني الرائحة.

الخادم : وأنا دوّختني المشاهد المبخرة.

(يضع المجمرة جانباً، ويسقطان على الفراش).

الخادم : أتريدين حديث الحب؟

الخادمة : وهل تحسنه؟

الخادم : اسمعي إذن. إن لحمي يحب لحمك، ودمي يحب دمك، وأنت نصفي وأنا نصفك، وليس لدي مزيد.

الخادمة : لا أطلب أكثر. أنا نصفك وأنت نصفي.

الخادم : أليس هذا هو الحب؟

الخادمة : هذا هو.. ما دام يكفينا ويسعدنا.

(تتلاشى الإضاءة).

المشهد الخامس عشر

(في زاوية السوق. عبدو وعباس).

عبدو : ألا تشعر بالخزي يا أبا الفهد!

عباس : ولمَ الخزي..! لا أسمح لك..

عبدو : لم أقصد إهانتك. ولكن هل يليق بك يا سيد الرجال، هذا العمل الذي تقوم به!

عباس : وماله هذا العمل! الأفضل أن تنشغل بسيدك. ألم تعرف أن المفتي نفسه جاء، وزحف تحت كندرتها.

عبدو : لاتحدثني عن المفتي. إن ذكره يثير غضبي وتقززي. لا.. لم يعد المفتي شيئاً بالنسبة لي.

عباس : هل استغنى عن خدماتك!

عبدو : هو يستغني عن خدماتي..! أنا الذي تركته، ولم أعد أطيق رؤيته بعد تلك المسخرة.

عباس : ماذا تريد إذن!

عبدو : اصغِ إلي يا عباس.. إن أكابر البلد فسدت أحوالهم، وانحطت مقاماتهم. وهم لم يكونوا أكابر إلا على أكتافنا. قبضاتنا، وأذرعنا القوية هي التي كانت تسند المقامات، وتوفر الطاعة. نحن الأزلام، وأصحاب الخيزرانات الأعمدة التي يقوم عليها البناء. والآن.. انظر.. بعد أن تفسخ الأكابر وفاحت روائحهم، لن يحفظ النظام ويحمي القيم سوانا.

عباس : لاتؤاخذني.. هذا كلام غريب، ولا أعرف إلام ترمي!

عبدو : ما أرمي إليه واضح. إذا لم نوقف تدهور الأحوال، فإن البلد ستنزلق إلى الإنحلال والفوضى. لن يُحترَم مقام، ولن تُقدَّر الرجولة. وسينهار البناء علينا جميعاً.

عباس : إنك تخوض في أمور خطيرة.

عبدو : إني أخوض في أمور خطيرة، لأن الوضع خطير يا أبا الفهد.

عباس : وماذا تقترح!

عبدو : أن نشكّل أخوّة من الرجال، كي نحفظ الأمن والنظام، ونطبّق الفتاوى التي أصدرها المفتي قبل سقوطه، وانحطاط أمره.

عباس : والأكابر!

عبدو : سنكشف سترهم، ونجعلهم واجهات بلا حول وبلا طول. إننا الرجال يا أبا الفهد.. والبلد يحتاج الآن إلى رجولة الرجال. ينبغي أن نوقف الفساد، وأن نعيد للنظام هيبته. وأنا واثق أن الوالي لن يمانع، وأن الدولة العلية ذاتها قد تبارك مبادرتنا.

عباس : هل فاتحت آخرين بالأمر!

عبدو : تعرف أني أحبك. وأتمنى أن نقود معاً هذه البادرة.

عباس : إنك تأخذني على غرة. هذا عرض يحتاج إلى تفكير. ولاتنسَ أني عاهدت ألماسة على الإخلاص، ولا أريد أن يصيبها أذىً.

عبدو : دعنا من التفاصيل. إننا نغرق في الميوعة يا أبا الفهد. وعلينا نحن أن نعيد للرجولة حقها وكلمتها.

عباس : سأفكر في الأمر.

عبدو : فكر في الأمر، ولاتخذلني. لن يحفظ القيم، ويحمي النظام سوانا.

عباس : لعلنا نلتقي قريباً.
عبدو : هل أوصيك بالكتمان؟
عباس : أتريد إهانتي!
عبدو : معاذ الله.. اعتبرها زلة لسان.
عباس : لا عليك..
عبدو : هل نلتقي غداً؟
عباس : لا أدري.. دعني على راحتي. سأجدك حين أقرر.
عبدو : لا تقلبها كثيراً. وتذكر أني أنتظر.
(يفترقان. وتتلاشى الإضاءة).

المشهد السادس عشر

(في بيت ألماسة. تجلس ألماسة ساهمة ومعها الخادمة).

الخادمة : ألم يتأخر أبو الفهد!
ألماسة : وماذا يهم..
الخادمة : حين يغيب أبو الفهد عن البيت، تركبني الهواجس وأشعر بالخوف.
ألماسة : أتخافين علي..!
الخادمة : جعلني الله فداءك.. لا أدري.. إني أتوجس حين يغيب عن البيت.
ألماسة : دعينا من التوجس والخوف، وحدثيني عنك.
الخادمة : وماذا أحدثك يا سيدتي!
ألماسة : هل أنت سعيدة مع زوجك؟
الخادمة : إني أخجل يا سيدتي أن أقول.. إن قلبي لا يحتمل مزيداً من السعادة. طبعاً لولا نعمتك علي..
ألماسة : **(مقاطعة)** أتحبينه..؟
الخادمة : وهو يحبني. لا يعرف كيف يزيّن الكلام. ولكن حين يقولي لي.. أنت نصفي وأنا نصفك، أشعر أن الدنيا لاتسعني وأني أريد أن أظل في حضنه إلى الأبد.
ألماسة : إني أغبطك.
الخادمة : سيدتي تغبطني..!

(يقتحم صفوان الباب بعنف، ويدخل).

ألماسة : من..!

صفوان : ألا تريدين رؤيتي يا أخت!

ألماسة : صفوان..؟!

صفوان : نعم.. أخوك وابن أمك صفوان.

الخادمة : سيدتي.. هل أبحث عن أبي الفهد؟

ألماسة : لا.. دعيني مع أخي.

الخادمة : سأبقى إلى جانبك.

ألماسة : لا.. لا.. اتركينا. **(تخرج الخادمة)** نعم يا صفوان.. أية لفتة كريمة جاءت بك!

صفوان : جاءت بي الحمّية يا أخت.

ألماسة : هل أوفدك الوالد؟

صفوان : لا.. لايعتقد الوالد أني جدير بهذه الوفادة. جاء بي الغضب، وثقل العار يا ألماسة.

(يمتشق من جيبه خنجراً، ويرفعه في الهواء).

ألماسة : أتريد أن تقتلني يا صفوان!

صفوان : هذا العار لايطهره إلا الدم.

ألماسة : أعرفك رقيقاً، تنفر من الدم.

صفوان : وستعرفينني الآن رجلاً يسفك الدم.

ألماسة : أود لو تجنب نفسك هذا العناء يا صفوان. لن تستطيع قتلي.

صفوان : **(هائجاً)** إنك تتحدثين كأبي. شحذت عزيمتي دهراً، وراقبت هذا البيت أياماً. وسترين الآن أني أستطيع.

ألماسة : ليس هذا ما أعنيه.

صفوان : وماذا تعنين إذن..؟

ألماسة : أنا يا صفوان حكاية، والحكاية لا تقتل. أنا وسواس وشوق وغواية، والخناجر لاتستطيع أن تقتل الوسواس والشوق

والغواية.

صفوان : **(يقترب منها، فلا تتراجع. يتردد لحظات)** لا.. لا تجرجر عزيمتك في الكلام. أغمد خنجرك. خذي يا أخت.
(يغمد الخنجر في صدر ألماسة بينما يترامقان بنظرة غريبة).

ألماسة : **(وهي تتداعى)** آه يا أخي.. لم تفعل شيئا. إن حكايتي ستزدهر الآن كبساتين الغوطة بعد شتاء ماطر. إن ألماسة تكبر وتنتشر. إنها تنتشر مع الخواطر والوساوس والحكايات. حكايات. حكا..

صفوان : **(يصحو من بهوته)** قتلتها.. بخنجري هذا قتلتها.. إني رجل.. إني رجل.. انظر يا أبي.. إني الرجل بينكم.. إني الرجل بينكم.
(يخرج من البيت مبهوراً. وهو يكرر العبارة. تدخل الخادمة، وحين ترى ألماسة تطلق صيحة رعب).

الخادمة : **(مولولة بلوعة)** قتلوا ألماسة. قتلوا الألماسة.
(تتلاشى الإضاءة).

المشهد السابع عشر

(في السوق. حميد وإبراهيم).

حميد : وهاجت المدينة حين شاع فيها النبأ. وخيم على الناس تطيّر ووجوم. أما المفتي الذي أُعفي، واستعفى من منصبه، فقد شق ثيابه، وأطلق صيحة مروعة، ثم لزم بيته، وأقسم ألا يذوق طعاماً أو شراباً حتى يأخذ الله أمانته. وانفرط عقد الأمان، وماعاد أحد يعرف ما يخبئ لنا الزمان. أتبكي يا إبراهيم..!

إبراهيم : إني أبكي، ولا أدري لماذا!

حميد : على كل، انتهت السالفة.

إبراهيم : أو لعلها بدأت.

(يدخل عبد الله عابراً السوق).

عبد الله : أنا هو.. وهو أنا. غطاني بنوره، فحجب عني الخلائق كلها. ثم سألني: ماذا تريد؟ قلت: أريد أن لا أريد. قال: قد أعطيناك. أنا هو.. وهو أنا. سبحاني.. سبحاني.. ما أعظم شأني! الله.. الله.. الله..

(يختفي وهو يردد كلمة.. الله.. وتتلاشى الإضاءة ببطء).

ستار.

١٩٩٣ - ١٩٩٤